قُطُوفٌ مِنَ المَعِينِ الرَّائِقِ

في سِيرةِ خَيرِ الخَلائِقِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزء الثاني: الهجرة النبوية

إعداد وتأليف الدكتور

سَعِيد بن مُحمَّد بن صَالِح بن صَوابي

أستاذ الحديث الشريف وعلومه

كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

الطبعة السادسة

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف
١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع
بدار الكتب والوثائق المصرية
٢٠١٥/١٠٩٤٣م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمدُ لِلَّهِ على وافرِ فضلِهِ وقديمِ إحسانِه، وسابغِ نِعَمِهِ وكريمِ امتنانِه، أحمدُه حمدًا لا ينقطع أَوَّلُه؛ ولا يَنفَدُ آخره، حمدًا يُرضيه ويَرتضيه؛ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على صفوةِ خلقِه، وخيرتِه من عبادِه: سيدِنا ونبيِّنا وحبيبِنا... محمدٍ ﷺ، وعلى جميع آلِهِ وأصحابِهِ، وأتباعِهِ وأحبابِه، وكل من تبعهم بإيمانٍ وإحسانٍ إلى يومِ الدينِ: وأدخلْنا اللَّهُمَّ جميعًا برحمتِك فى عبادِك الصالحينَ، اللَّهُمَّ آمِينَ، أَمَّا بَعْدُ:-

فلقد سبق لنا – بكرم الله وتسديده- كتابة ثلاثة بحوث فى هذه السيرة المباركة فى الجزء الأول من هذا الكتاب، وقد ركزتُ الدراسةَ فيه على العناصر التى تميز شخصية الرسول ﷺ عن غيره، وتختص به دون سواه: كالمبشرات به ﷺ قبل مولده، وما تميزت به شخصيته ﷺ من الصيانة فى نشأته، ثم كان الوحى الذى هو أكبر الدعائم التى ترتكز عليها حقيقة الرسالة، وهو الذى دارت حوله اللجاجة والجدل؛ وهو الذى جعله ﷺ متميزًا على سائر من عداه، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف:١١٠] و [فصلت:٦].

ولذا: أخذتْ دراستُه حيزًا كبيرًا؛ للرد على شبهات المستشرقين ومَن سار فى ركابهم من المسلمين مستندين فى ذلك إلى بعض العلل الخفية فى الأحاديث الصحيحة التى توجب أحيانًا ضعف الحديث والقدح فيه، وأحيانًا أخرى لا تؤثر فى قوته وصحته.

فمثال الأول: الزيادة فى آخر حديث عائشة عن بدء الوحى عند البخارى وغيره[1].

---

(١) وقد حققتُ القولُ فى الحديث بصفةٍ عامة، تحت عنوان: «حَدِيثُ بَدءِ الوَحيِ ومَا يُستَفادُ مِنه»، وحققت تلك الزيادة

ومثال الثانى: أعنى: ما يتوهمه بعض الناس عن جهلٍ أو عمدٍ من فهم خاطئ لأحد ألفاظ الحديث الصحيح؛ كسؤال هرقل لأبى سفيان عن رسول الله ﷺ: فأشراف الناس يَتَّبِعُونَهُ أم ضعفاؤُهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم...(٢) الحديث عند البخارى وغيره.

وقد اجتهدت ما وسعنى الجَهد؛ وحَرَصتُ كل الحرص: أن يكون الأئمة الذين أخرجوا الحديث فى مصنفاتهم؛ لاسيما البخارى ومسلم هم الذين يكشفون تلك العلة، ويظهرون ضعفها فى ذاك الحديث؛ حتى لايتجرأ أحد على الطعن فى الصحيحين، أو النيل من أحدهما، فضلاً عن كتب السنة الأخرى.

وأما الأحاديث الضعيفة: فالبلاء فيها أعظم، والفتنة بها أطم وأعم، وما أكثرها فى السيرة النبوية! فالمستشرقون: ينسجون منها قصصًا وتخيلات لا حقيقة لها ولا أصل، والسطحيون من المسلمين يستنبطون منها أحكامًا، وينشئون من فهمهم لها قواعد لا أصل لها، وقد يُخدعون بحكم أحد الحفاظ على سند الحديث بأن رواتِه كلَّهم عدولٌ ضابطون، أو قد أخرج لهم الشيخان، ونحو ذلك من الأحكام التى لا تقطع بصحة الحديث، لأنها اقتصرت على شرطين فقط من الشروط الخمسة التى يجب توافرها فى الحديث حتى يكون صحيحًا، فالتحقيق لمثل هذه الأحاديث آكد وأوجب، والله المستعان(٣).

بصفةٍ خاصة، تحت عناوين: «زَعْمٌ فاسدٌ وفِرْيَة مَرْدُودَة» و «افْتِرَاءَاتٌ وَمَزَاعِمُ يُبْطِلُهَا الْقُرْآنُ وَحَدِيثُ أَبِى الْقَاسِمِ» و «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا»، ولله الحمد.

(٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب عند الهامش رقم٣١٧ للرد على المستشرق النصرانى ر.ف.بودلى: الذى زعم أن السابقين إلى الإسلام هم من التجار المخفقين أو الرجال الساخطين، فبيَّنَّا فساد قوله، تحت عنوان: «فِقهُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ وفَضلُهم» وما بعده من بحوث.

(٣)راجع فى الجزء الأول ما ورد من الأحاديث الضعيفة فى تزويج النبى ﷺ بأم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللهُ عَنهَا وكيف فُتِن بها

وهكذا: ما حقَقْتُ جزئيةً فى ذاك الجزء: إلا أوضحت سببها، مع الالتزام بأدب أهل العلم وطلابه[٤]، وما تعرضتُّ لمسألة فيها خلاف: إلا نقلت أرجح الأقوال فيها، مع تدعيمه بالأدلة، والاكتفاء فقط بالإشارة إلى الآراء الأخرى، ليرجع إليها من أحب، وذلك دون أن يشعر القارئ بأنه يتعرض لمسألة خلافية، أو يتعرف على حقيقة مختلف فيها[٥].

وها نحن أولاء- بعون الله وفضله- نواصل مسيرتنا فنجدد الطبعة السادسة للجزء الثانى من كتاب: «المَعِين الرَّائِق مِن سِيرَةِ خَيرِ الخَلائِقِ ﷺ» فى سلسلة الدراسات التحليلية لقضايا وأحداث السيرة النبوية، وهذا الجزء يبدأ من هجرة النبى أبى القاسم: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، صاحب اللواء المرفوع فى: عبدمناف بن قصى، ذى الفرع المُنيف الشريف فى: كعب بن لؤى، الراسخ الأصل فى: مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ الموصول النسب بإسماعيل بن إبراهيم: عليهم جميعًا من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ وذلك حتى إعداده ﷺ خلفاءه لتحمل الأمانة من بعده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى[٦].

وهذا- بحمدِ اللهِ وتوفيقِه- عَوْدٌ حَمِيدٌ كَرِيمٌ، لإعادة طبع ما سبقت كتابَتُهُ فى هذه الدراسةِ التحليليةِ للسيرةِ النبويةِ: التى لا يَنضبُ مَعِينُها، ولا يغيض نَبعُها، ولا يتناهى خيرُها، ولا ينقطع

بعض المسلمين، واستغلها المستشرقون على أسوأ حال، وذلك عند الهامش رقم ١٦٠.

(٤)اقرأ على سبيل المثال في الجزء الأول: «اصطفاءُ اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ نسبًا ونشأةً» وما بعده، و «إِسلاَمُ النَّجَاشِى وَمَن شَابَهَهُ فِى صَنِيعِهِ» و «وَفَاةُ أَبِى طَالِب». وسيرى القارئ: كيف يكون الأدب مع العلماء إذا اختلفت وجهات النظر، ويُستثنى من ذلك: حِدَّتُنَا على المستشرقين الذين يطعنون فى دين الله تعالى وكتابه ورسوله وسلف هذه الأمة.

(٥)راجع على سبيل المثال في الجزء الأول: «تَحقِيقٌ حَولَ فِتنَةِ السَّابِقِينَ وَإِكرَاهِهِم عَلَى الكُفْر»و«الدَّعوَةُ مِن بَدءِ البَعثَةِ».

(٦)ينظر: كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، لتقى الدين أحمد بن على المقريزى، تحت عنوان: ما جاء فى أسمائه ﷺ ونسب أبيه ٣/١ تصحيح وشرح الأستاذ محمد شاكر.

مددُها، ولا تنعدم بركتُها، ولا تنقطع ثمرتُها... نفعنا الله وجميعَ المسلمين بها وبصاحبها ﷺ فى الآخرة والأولى، وهدانا بإيماننا، وأكرمنا بصالح عملنا، وبارك لنا فى سعينا، ووفقنا لخدمة شرعه والقيام بدينه، وعفا عن زللنا وخطئنا، ووقانا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ورزقنا الرضا به والرضا عنه، حتى يرضَى عنا: رِضًا لا يَسْخَطُ علينا بعده أبدًا برحمته وهو أرحم الراحمين؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد انتقيت من هذا الجزء الثاني قطوفًا من المعين الرائق، تبدأ: بتجلية المراد من كلمة الهجرة لغة وشرعًا؛ مع سرد أقوال الأئمة والموازنة بينها، والانتهاء بذلك إلى تعريفٍ جامعٍ لكل طرائقها الشرعيةِ التى سلكها الأولون والآخرون، وبيان صلة المهاجرين إلى المدينة بأصل كلمة الهجرة وفروعها.

ثم شَرَعتُ فى سرد أحداث الهجرةِ النبوية حَسْبَ وقوعِها، وتفهُّمِ قضاياها وِفْقَ ورودِها، بتنوع بحوثها، وتجدد أحداثها، وتوضيح ذلك بنماذجَ محققةٍ من سيرةِ خيرِ البريةِ ﷺ، وحياةِ أصحابه الأطهار من المهاجرين والأنصار، ومعرفة البواعث التى أفضت بهم إلى الهجرة، وكيف أرسى رسول الله ﷺ أسس الدولة، وربَّى المجتمع على العقيدة والعبادة والمعاملة مع المسلم وغيره؛ ليقتدى بها كل مسلم ومسلمة فى طول الزمان وسائر الأوطان.

وهذه الدراسة المستوعبة للهجرة النبوية: تؤكد عالمية الهجرة، ودوام انتفاعِ الناس بها؛ وذلك واضح فى مسيرة النبيين بدءًا بهجرة الخليل إبراهيم، ومرورًا بفرار موسى الكليم، وظهورًا بهجرة خاتم الأنبياء والمرسلين، وإعزازًا لأصحابه أجمعين، وفتحًا للبلد الأمين، واستمرارًا مع سائر المؤمنين إلى يوم الدين.

وأرجو كل مُطالع لهذا الكتاب: ألا يتعجلَ استنباطَ حكم من نص يقرأه أو رأى يطالعُه:

حتى يراجع فيه أهل الاختصاص عملاً بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وذلك لوفرة الأحوال وتنوعها، وكثرة الصور وتشابهها، ومن ثَمَّ: أتبعتُ هذه الدراسة للهجرة: بِلَمْحَاتٍ مِن بَعضِ الغَزَوَات، الأولى التى جاء بها المشركون ومن شايعهم لحرب المسلمين فى المدينة وما حولها، وِفق التسلسل التاريخى لكل منها، وكان موقف المسلمين فيها الدفاع والتصدى لتلك الهجمات.

ثم ختمتُ هذا الجزء: بالدعوةَ العملية داخل وخارج الجزيرة العربية على يد خير البرية ﷺ وخلفائه الأخيار وجميع أصحابه الأطهار؛ لِتكُون نِبراسًا لكل مَن تَبِعهم بإيمان وإحسان إلى يوم القرار.

ولا أُذيع سرًا إذا قلتُ: إنى قد طالعت كتبًا كثيرة، ونقلت أقوالاً عديدة لأئمتنا العلماء وشيوخِنا الفضلاء قدامى ومُحْدَثين وسابقين ومعاصرين، وقد جعلتُ هذه البحوث التحليلية وغيرَها مما لم أُشِرْ إليه هنا مبثوثةً خلال أحداث السيرة النبوية من الهجرة النبوية إلى وفاة خير البرية مراعيًا الترتيب الزمنى واختيار المكان المناسب للبحث التحليلى المراد تحقيقه فى حينه، والله المستعان.

ودائمًا أوصِى كلَّ طالبِ علمٍ: أن يعرفَ محتوياتِ كل كتاب وطريقةَ مؤلِّفِهِ فيه، وإن كان لذلك الإمام أكثرُ من كتاب فى الموضوع الذى يريد دراستَه أو تحقيقَه: فلا بد من مطالعتِه والإحاطةِ به؛ لأن بعض الأئمة قد يرى ما لا يراه الآخر، وقد يفقه ما لا يدُركُه غيرُه، بل إن العالِمَ الواحد قد يرجع عن بعض ما كَتَبَ؛ بسبب فتح جديد له من الله، وكذلك الفتوى تقدر بقدرها، لأن المفتِى بها يراعى الظروفَ والأحوالَ المناسبةَ لها ولطالِبها.

كما أن فى هذه الدراسة خيرًا كثيرًا لم أُشِرْ إليه ليُسرِه وسهولته ووضوح دلالته، وهذا يتضح بمطالعة فهرس كل جزء على حِدَة من هذا الكتاب، وقراءة مقدمة كل منهما، ثم دراسة الموضوعات المترابطة كلٍّ على حِدة، والتدقيق فى كل جزئية منه، وكثيرًا ما أُضيف هوامش غير مرقمة لتوضيح ما قد يعرض من لبس وأحيل فيها على الهوامش الأصيلة المرقمة ترقيمًا تسلسليًا التى تحتوى على تخريج الحديث، أو تراجم الرواة، أو تحديد المصدر الذى استقيت منه الفائدة العلمية.. وغير ذلك.

وأُرَدِّدُ دون مللٍ ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان نبيه شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

والحمد لله على ما وفق ويسر، ونسأله سبحانه: الإخلاص والقبول، وأن ينفع بهذا العمل: صاحبه وكل من بذل فيه جهدًا، أو أصلح فيه خللاً وجميع الناظرين فيه، والقارئين له، والمستفيدين به، حتى يكون من الباقيات الصالحات: فى الحياة وبعد الممات.

ونضرع إليه جل وعلا؛ آملين فى كرمه وإحسانه، وجوده وامتنانه: أن يرزقنا جميعًا حبه وطاعته، وحسن الاقتداء بنبيه ﷺ: حتى يتحقق لنا الفلاح فى الدارين، والفوز فى الحياتين، والأمن يوم الفزع الأكبر، ونبتهل إليه سبحانه: أن يمن علينا بخشيته فى السر والعلن، وتقواه فى الغيب والشهادة، وأن يعافينا من كل مكروه وسوء، وأن يتكرم علينا بالعفو والغفران والستر لما مضى من ذنوبنا؛ واللطف والتوفيق والرضا فيما بقى من عمرنا: إنه – جل وعلا – خير مأمول وأكرم مسئول وصلِّ اللَّهم وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وشفيعنا وسيدنا: محمد، وعلى جميع أصحابه، وكل من تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين: اللَّهم آمين.

أ.د/ سعيد صوابى

يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر المحرم عام ١٤٤٠ للهجرة- الموافق ١/١٠/٢٠١٨م.

الهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ والشَّرع
وَمَسَالِكُ المُهَاجِرِينَ وَصِلَتُهُم بِكُلٍّ مِنهَا

الأصل اللغوى لكلمة الهجرة هو: المصارمة والقطع والمفارقة والترك والبعد، يقال: هاجر القوم من دارٍ إلى دار، أى: تركوا الأولى وفارقوها إلى الثانية، وكذا فعل المهاجرون الأولون حين هاجروا من مكةَ إلى المدينة، فرارًا بالدين من بين أظهر المشركين إلى مناصرة خاتم المرسلين ﷺ، وهذه الهجرة هى التى وعد الله تعالى أصحابَها بالجنة، كما قال ابن الأثير: حيث كان الرجل يأتى النبى ﷺ ويدع أهله وماله لا يرجع فى شىءٍ من ذلك، وينقطع بنفسه إلى مُهَاجَرِه، وذلك حين كانت مكة بلد كفرٍ وشركٍ قبل فتحها.

والهجر بهذا المعنى: منه ما يكون حسيًا، ومنه ما يكون معنويًا، ومنه ما يكون بالبدن، ومنه ما يكون باللسان، ومنه ما يكون بالقلب، فيقال: هجرت الشىء هجرًا: إذا تركته وأغفلته، أى: يترك وصلَه وقربه مع سخطه هناك، وأغلب ما يكون السخط من الهاجر كما يقال: هجرت فلانًا الخائن، وهجرت هذا العمل المَقِيتَ، وقد يكون السخط من المهجور، كما يقال: أيها الغادر اهجرنى ولا تدنُ منى.

كما قال آزرُ لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رافضًا لنصحه ومتوعدًا له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر العلامة ابن فارس أن لكلمة الهجرة أصلين: أولهما ما ذكرناه، وثانيهما: بمعنى رَبْطُ شىءٍ فى شىءٍ آخر، حيثُ قال: الهِجَار ككتابٍ؛ حبلٌ يسوَّى فى طرفيه عروتان؛ تُشَدُّ إحداهما فى يد الفرس، والأخرى فى رجله؛ حتى يمشى مثقلاً متقارب الخطو، فيقال فيه: فرسٌ هَجِرٌ؛ ككتف، وهو الذى يمشى مثقلاً ضعيفًا إذا شده صاحِبُه بالهجار كالزمام والعقال، ومنه: هِجَارُ

القوسِ؛ وهو وتَرُها(٧).

وهذا الأصل الثانى الذى أضافه ابن فارسٍ؛ لا يبعد عن الأصل الأول وما يندرج تحته من معانٍ، لأن الفحل إذا شُد بالهِجَارِ: كان ذلك سببًا فى هجرانه الإبل ومفارقتها والبعد عنها.

وكذلك السابقون الأولون من الصحابةِ: لما ارتبطت قلوبهم بالإيمان، وتوثقت نُفُوسُهُم بِعُرَاهُ؛ هجروا المشركين وفارقوهم فى الأقوال والأفعال، وإن لم تتيسر لهم بعدُ مفارقتهم بالأبدان والأوطان.

وفى استعمال الهجرة بمعنى البُعد تقول العرب: هاجر الرجل إذا تباعد ونأى، ومنه جاء لقبُ المهاجرين المحمودُ، حيث نأوا عن مخالطةِ المشركين، وبعدوا عن مساكنتِهِم.

وبقدر ذاك الاتساع اللغوى لكلمة الهجرة: كذلك تعددت أقوال العلماء فى المراد بالهجرة شرعًا، وسأحاول مستعينًا بالله تعالى جمْعَ أطرافِ كلامهم للتوصل منه إلى تعريفٍ جامعٍ لكل أنواع الهجرة الشرعية، وشامل لجميع طرائقها التى سلكها الصحابة الأولون وسُمِّىَ كل واحد منهم مهاجرًا، كمن هاجر إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة، وهؤلاء وأولئك مشهورون: بل إنَّ مَنْ هاجر من المدينة إلى مكة لمبايعة رسول الله ﷺ ونصرته؛ فإن اسم الهجرة يشملهم وينطبق عليهم؛ حيث فارقوا أوطانهم، وجاءوا للإيمان برسول الله ﷺ ومناصرته.

---

(٧)ينظر فى ذلك: مقاييس اللغة لابن فارس ٣٤/٦ : ٣٦ ، ولسان العرب لابن منظور ٤٦١٦/٦: ٤٦٢١، والقاموس المحيط للفيروز آبادى ص٦٣٧ ، ٦٣٨ ط الثانية مؤسسة الرسالة، والمفردات فى غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهانى ص٧٨٢ ، ٧٨٣، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٧٨٣/٢، ٧٨٤ الطبعة الثانية عن مجمع اللغة العربية- القاهرة، والنهاية لابن الأثير ٢٤٤/٥: ٢٤٦ ط عيسى الحلبى، ومجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للشيخ محمد طاهر الصديقى الهندى ١٤٤/٥: ١٥٠، ٧٢٢، ٧٢٣ ط الثالثة مكتبة دار الإيمان بالمدينة المنورة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، وسوف أعزو بعد ذلك كلام كل واحد منهم إلى كتابه فى المادة نفسها، فضلاً عما يستجد من مراجع كالفائق للزمخشرى وغيره.

أخرج الإمام النسائى بسندٍ صحيح من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ: كَانُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هَجَرُوا الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ مُهَاجِرُونَ: لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ دَارَ شِرْكٍ، فَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ»(٨).

جمع المناوى بين التعريف اللغوى، والتعريف الشرعى للهجرة، فقال: الهجر والهجران؛ مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، والهجرة فى الأصل: مفارقة الغير ومتاركته، لكن خُص شرعًا بترك الوطن الذى بين الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام(٩).

وهذا التعريف الشرعى مع وجازته: لكنه لاينطبق على الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة، لأنها ليست دار إسلام، مع أن النبى ﷺ: قد أذن لهم فى الهجرة إليها، وبشرهم بعظيم فضل هذه الهجرة، وأخبرهم بجزيل أجرها وكريم ثوابها؛ لكن النجاشىَّ مِلِكَ الحبشةِ؛ قد أسلم، وإن لم يَعلَم قومه بذلك.

وقال الجرجانى فى تعريف الهجرة: هى ترك الوطن الذى فيه الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام(١٠).

ونقل ابن منظور تعريفًا آخر للهجرة عن الأزهرى قال: المهاجَرة عند العربى: خروج البدوى من باديته إلى المدن، وكذلك كل مُخْلٍ بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين فقد هاجر قومه.

وقد سُمِّى المهاجرون: مهاجرين؛ لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشأوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حتى هاجروا إلى المدينة، فكان من فارق بلده من بدوى أو حضرى أو سكن بلدًا آخر فهو مهاجر، وكل من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم، ولم

---

(٨) سنن النسائى: كتاب البيعة/ باب تفسير الهجرة ١٦٣/٧.

(٩) كتاب: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى ص٧٣٨ الطبعة الأولى دار الفكر – بيروت.

(١٠) كتاب: التعريفات للجرجانى ص٣١٩.

يلحقوا بالنبى ﷺ، ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أُحدِثت فى الإسلام، وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين، ويُسَمَّوْنَ الأعراب(١١).

وهذا كلام نفيس غير أنى أنبه على ما ورد فى أوله من قوله: خروج البدوى من باديته إلى المدن، هذا إن صح إطلاقه على بعض الصحابة، فإنه لا يصح إطلاقه على الأكثرين منهم، كالذين هاجروا من بلاد متحضرة كمكة وغيرها.

وقوله: «وكل من أقام من البوادى بمباديهم...» إلى آخره: هذا ليس على إطلاقه كمن أذن لهم النبى ﷺ فى الإقامة بأوطانهم فى مثل قوله ﷺ: «وَيْحَكَ! إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ...»(١٢).

وأوجز التعريفات وأجمعُها فيما أرى ما ذكره ابن الأثير فى كتابه النهاية، حيث قال ما نصه: «اشتهرت الهجرة فى لسان الشرع الإسلامى فى انتقال المؤمن من بلد الفتنة والخوف على دينه إلى حيث يأمن، وغلب هذا فى الهجرة من مكة إلى المدينة فى حياة الرسول ﷺ، حين كانت مكة بلد كفر وشرك قبل فتحها».

وهذا التعريف يشمل جميع الصحابة الذين تشرفوا بالهجرة أثناء استضعافهم فى مكة قبل أن تكون لهم دارُ إسلام يهاجرون إليها، والذين هاجروا إلى النبى ﷺ فى مدينته بعد أن صارت لهم فيها دولة، وأضْحَتْ لهم بها قوة ومنعة، كما يشمل التعريف كل من هاجر ويهاجر فرارًا بدينه من بلد الفتنة والكفر إلى دار الإسلام والأمان، وأما تعريف الجرجانى وغيره الذى قيد فيه الأرض المهاجر إليها بكونها دار إسلام؛ فهو ما استقر عليه أمر الشرع بعدُ، والله أعلم.

---

(١١) لسان العرب مادة: هجر.

(١٢) الحديث متفق عليه، وسيأتى لفظه وتخريجه وشرح غريبه تحت عنوان: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ».

الْهُجْرُ بِمَعْنَى الْهَذَيَانِ

وهذا أول فرع للهجرة بعد ذاك الأصل المتقدم، وهو: (الهُجْرُ) ومعناه: الهَذَيَان وَالْفُحْش والخنا والقبيح من القول، يقال: أهجر فى مَنْطِقِهِ إذا أفحش وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغى، فيقولون: رماه بالهاجرات، وهى الفضائح والقبائح، وقد ورد هذا المعنى فى القرآن والسنة، ففى الكتاب العزيز قوله تعالى فى وصفه للمشركين وخبره عن حالهم ومقالهم: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون].

أى: هذا حالهم حين نُكوصِهم عن الحق ورفضهم له استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، ومرجع الضمير فى قوله تعالى ﴿بِهِۦ﴾ فِيهِ ثَلاَثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أنه الحرم بمكة، ذُموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام، وكانوا يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه.

وَثَانِيهَا: أن الضمير يعود إلى القرآن حيث كانوا يَلْغُون عند سماعه ويذكرونه بالهجر من الكلام، فيقولون فيه: إنه سحرٌ، إنه شعرٌ، إنه كهانة... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

وَثَالِثُهَا: أن الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ فكانوا يتحدثون عنه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، ويصفونه بما هو مبرَّأٌ منه، كقولهم: إنه شاعرٌ، أو كاهنٌ، أو ساحرٌ، أو كذابٌ، أو مجنونٌ، وكل ذلك باطل؛ بل هو عبدالله ورسوله الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور(١٣).

وَخُلاَصَةُ مَعْنَى الآيَةِ: أن المشركين كانوا يجتمعون حول البيت بالليل، ويسمرون بالطعن فى القرآن والرسول، ويهذون فى شأنهما.

---

(١٣) تفسير ابن كثير ٥/٤٧٦ بتصرف.

كما أن فى الآية ذمًّا لكل من يسمر فى غير طاعة الله.

قال الإمام القرطبى: اتفقوا على كراهية الحديث بعد صلاة العشاء، لأن الصلوات قد كفرت خطايا الإنسان فينام على سلامة، وقد خَتَمَ الحفظةُ صحيفةَ العبدِ بالعبادةِ؛ فإن سمر بعدها فقد لغا، وجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين، وهذه الكراهة تختص بما لا يكون من الطاعات ومصالح المسلمين، وما شابه ذلك(١٤).

وفى السنة المشرفة من الأحاديث ما رواه أبو سعيد الخدرى فى آخر حديث طويل عن النبى ﷺ أنه قال: «...وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا، وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا»(١٥).

ومعنى الحديث: أنه ﷺ قد أذن فى زيارة القبور، ونهاهم عن التحدث بما لا ينبغى من الكلام كالفُحش وقول السوء؛ فإنه ينافى المطلوب وهو الاعتبار بحال الأموات والدعاء لهم، وتذكر الآخرة... ونحو ذلك مما يدمع العين ويرقق القلب.

والهُجر -بفتح الهاء وضمها أيضًا-: معناه الهذيان واختلاط الكلام، ومنه حديث سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ لِي أَصْحَابِي: بِئْسَ مَا قُلْتَ! قُلْتَ هُجْرًا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَانْفُثْ عَنْ شِمَالِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ لَا تَعُدْ».

---

(١٤) باختصار فى تفسير القرطبى ١٢/١٣٦: ١٣٩، ويراجع فى ذلك صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب العلم والعظة بالليل، وباب السمر فى العلم ١/٢١٠: ٢١٣، وكتاب الصلاة/ باب السمر فى الفقه والخير بعد العشاء، وباب السمر مع الضيف والأهل ٢/٧٣: ٧٦.

(١٥) حديث صحيح أخرجه الإمام مالك فى الموطأ كتاب الضحايا/ باب ادِّخار لحوم الأضاحى ٢/٤٨٥، والإمام أحمد فى المسند ٣/٦٣، ٦٦، وله شواهد من حديث بريدة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ينظر سنن النسائى كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور٤/٣٩٤ بسند حسن عن بريدة، ومسند الإمام أحمد ٥/٣٦١، بسند ضعيف، وقد فصَّلتُ تخريجه فى كتاب: (حديث وموقف)، فليراجعه من أحب، وأما حديث أنس ففى المسند ٣/٢٣٧، ٢٥٠.

ومعناه أن سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حلف باللات والعزى فى ذهول، وعن غير قصدٍ لقرب عهده بالشرك وأهله، فأجرى الشيطان الكلام على لسانه دون وعيٍ منه، ولما ذكَّره أصحابه ونصحوه بالذهاب إلى رسول الله ﷺ بادر وأسرع ليجد عنده العلاج والشفاء.

وهذه رواية أخرى للحديث فيها مزيد من التفصيل يقول فيها سعد: كُنَّا نَذْكُرُ بَعْضَ الْأَمْرِ وَأَنَا حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ فَحَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ لِي أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: بِئْسَ مَا قُلْتَ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبِرْهُ، فَإِنَّا لَا نَرَاكَ إِلَّا قَدْ كَفَرْتَ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِي: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا تَعُدْ لَهُ»(١٦).

وهذه المعانى سواء كانت من الفُحش أم من التخليط؛ فإنها من المهجور الذى لا خير فيه، وهى من الأسباب الحاملة للصحابة على الهجرة من بين المشركين للراحة من رؤية المنكر وسماع القبيح، وأيضًا فإن هذه المعانى لا تبعد عن معنى الترك، لأن مقتضى ذلك: هجران الشهوات والأخلاق الذميمة، وترك الخطايا ورفضها، والتخلى عن كل قبيح.

---

(١٦) الحديث حسن بروايتيه أخرجهما الإمام النسائى فى سننه: كتاب الأيمان والنذور/ باب الحلف باللات والعزى ١١/٧، ١٢ ح٣٧٨٥، ٣٧٨٦ من طريقين عن أبى إسحاق السبيعى، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، فأما الطريق الأولى فجميع رواتها ثقات، لكن سماع زهير بن معاوية بن حديج من أبى إسحاق بآخَرةٍ، التقريب ص٢١٨، وأما الطريق الثانية، ففيها مخلد بن يزيد الحرانى، قال أحمد: لابأس به، وكان يَهِمُ، وقال أبو حاتم: صدوق، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان وابن حبان وغيرهم، تهذيب التهذيب ٧٧/١٠، ٧٨، عن يونس بن أبى إسحاق السبيعى: ضعفه أحمد وغيره، وقال ابن عدى: له أحاديث حِسان، وقال النسائى وابن مهدى ليس به بأس، وقال أبو حاتم: كان صدوقًا، ووثقه ابن معين وابن حبان، التهذيب ٤٣٤/١١، عن أبيه: أبى إسحاق، وهو أعرف بحديثه، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التَّهْجِيرُ بِمَعْنَى السَّبْقِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى الصَّلَوَاتِ

وهذا فرع ثان للهجرة؛ وهو من التهجير بمعنى: التبكير إلى كل شئ، والمبادرة إليه، ومنه حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ: لاَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ: لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ: لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا» متفق عليه(١٧).

و: «النِّدَاءُ» هو الأذان للصلاة، و«الاستِهَام» هو:الاقتراع و«العَتَمَة» -بفتحات- هى صلاة العشاء.

ومعنى الحديث: أن الناس لو علموا فضيلة الأذان والصف الأول، وعظيم جزائه، ثم لم يجدوا طريقًا لتحصيله إلا الاقتراع: لفعلوه، وفيه الحث العظيم على التبكير إلى الصلوات وأدائها مع الجماعة؛ لاسيما صلاتى العشاء والفجر، ويحصل أجر التهجير إلى الصلوات بالمُضِيِّ إليها قبل دخول وقتها، وبالمشى إليها فى أول وقتها لأدائها مع الجماعة فى المسجد.

قال النووى: «التهجير» التبكير إلى الصلاة، أى صلاة كانت، قال الهروى وغيره: وخصه الخليل بالجمعة، والصواب المشهور: الأول(١٨).

---

(١٧) صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب الاستهام فى الأذان ٩٦/٢ واللفظ له، وفى باب فضل التهجير إلى الظهيرة ١٣٩/٢ مقتصرًا على التهجير والعتمة، وفى باب الصف الأول ٢٠٨/٢ مختصرًا أيضا، وفى كتاب الشهادات/ باب القرعة فى المشكلات٢٩٣/٥، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب تسوية الصفوف وإقامتها ١٥٧/٤، ١٥٨، وفى كتاب الإمارة/ باب بيان الشهداء ٦٢/١٣ مطولاً شرح النووى، والموطأ: كتاب الصلاة/ باب ما جاء فى النداء للصلاة ٦٧/١، وفى كتاب صلاة الجماعة/ باب ما جاء فى العتمة والصبح ١٣١/١ مطولاً، ومسند الإمام أحمد ٢٣٦/٢، ٢٧٨، ٣٠٣، ٣٧٤، ٣٧٥.

(١٨) شرح النووى لصحيح مسلم ١٥٨/٤ باختصار.

ومما لا شك فيه أن المسارعة إلى صلاة الجمعة، والتبكير لحضورها: له من الثواب والأجر ما ليس لسائر الصلوات، ويدل لذلك الحديث المتفق عليه، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي الْبَدَنَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ» هذا لفظ الإمام مسلم(١٩).

ومعنى الحديث: أن الملائكة تكتب أسماء المصلين بالترتيب حسب وفودهم إلى المسجد، لتفاوت أجورهم، والمُهَجِّر -بضم الميم وفتح الهاء وكسر الجيم المشددة- من التهجير، قيل المراد به المبادرة إلى الجمعة بعد صلاة الصبح، وقيل: بل فى قرب الهاجرة أى: نصف النهار، ونقل القاضى عن الحربى، عن أبى زيد، عن الفراء وغيره أنهم قالوا: التهجير: السير فى الهاجرة، وهى اشتداد الحر وسط النهار، قال النووى: والصحيح هنا أن التهجير هو التبكير.

وفى أصل كلمة الهاجرة يقول الزمخشرى: الهجير والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر، أو من عند زوالها إلى العصر، لأن الناس يستَكِنُّون فى بيوتهم، كأنهم قد تهاجروا لشدة الحر، وصلاة الظهر تسمى صلاة الهجير، فلا يستوى من سار إليها فى الهاجرة بمن أقام فى بيته ساعة القيلولة(٢٠).

---

(١٩) صحيح البخارى: كتاب الجمعة/ باب الاستماع إلى الخطبة ٤٠٧/٢، وصحيح مسلم: كتاب الجمعة/ باب فضل التهجير يوم الجمعة ١٤٥/٦، وسنن النسائى: كتاب الجمعة/ باب التبكير إلى الجمعة ١٠٨/٣، ١٠٩، وسنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء فى التهجير إلى الجمعة ٣٤٧/١، ومسند الإمام أحمد ٢٥٩/٢، ٢٨٠، ٥٠٥، ٥١٢، وسنن الدارمى: كتاب الصلاة/ باب فضل التهجير إلى الجمعة ٤٣٥/١، ٤٣٦، وينظر: الموطأ ١٠١/١، وسنن أبى داود ٢٤٩/١، ٢٥٠، وجامع الترمذى ٣٧٢/٢.

(٢٠) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ٣١٩/١، والنهاية: مادة هجر.

ولا يخفى أن هذه المعانى وثيقة الصلة بأصل الهجرة، وهو المفارقة والترك، وكذلك كان شأن المهاجرين الأولين فى هجرتهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ: لا يبالون بلفح القِفَار، ولا تعوقهم شدة الحر فى منتصف النهار، وأما فى الطاعات والقربات: فكانوا أول الناس فى التبكير إليها والمبادرة بها، وصدق الله عَزَّوَجَلَّ فى وصفه لهم، ومدحه إياهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

تَهَجَّرَ وتَمَهْجَرَ: تَشَبَّهَ بِالْمُهَاجِرِينَ

وهذا فرع ثالث من معانى الهجرة، يقولون: تَهَجَّر- بتشديد الجيم المفتوحة- وتَمَهْجَر الرجل، يعنون: أنه تشبه بالمهاجرين فى الأقوال والأعمال والأوصاف دون صحة قصد منه، ولا نية خالصة، وهذا كقولهم: فلان يتحلم، وليس بحليم، ويتشجع، أى: يظهر ذلك وليس فيه.

وهذا كشأن المنافقين الذين يخالف ظاهرُهم باطنَهم، وعلانيتُهم سرائرَهم.

وفى الحديث عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هُجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ» وَقَالَ يَزِيدُ -يعنى ابن هارون- مَرَّةً: «سُخُبٌ بِالنَّهَارِ»(٢١).

---

(٢١) حديث حسن – إن شاء الله تعالى – أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٢/٢٩٣، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب الإيمان/ باب فى النفاق وعلاماته ١/١٠٧، وقال رواه أحمد والبزار، وفيه عبدالملك بن قدامة الجمحى، وثقه يحيى بن معين وغيره، وضعفه الدارقطنى وغيره، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، وفى سنده: عبدالملك بن قدامة الجمحى، كان عبدالرحمن بن مهدى يثنى عليه، وثقه ابن معين والعجلى، وقال ابن عبدالبر: مدنى ثقة شريف، وضعفه أبو حاتم والنسائى والدارقطنى، وقال البخارى يعرف وينكر، وقال العقيلى: عنده عن عبدالله بن دينار مناكير، وكذا قال الحاكم وأبو نعيم

ومعنى الحديث: أن من علامات المنافقين أنهم يُحَيُّون الناس بألسنتهم، ويلعنونهم فى قلوبهم، وأنهم لا يتورعون عن أكل الحرام دون أن يشعر بهم أحد، فيختلسون وينتهبون، وإذا خلوا بشىءٍ من الغنيمة سرقوه، وخانوا أصحابهم فيه، وذلك من الكبائر، ولا تجوز الاستهانة به ولو كان يسيرًا، ومن صفاتهم أيضًا: «لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هُجْرًا» – بفتح الهاء وضمها وسكون الجيم– فبفتح الهاء معناه: أنهم يفارقون المساجد بأبدانهم، ويتركون ذكر الله فيها بألسنتهم، فقلوبهم منكِرة لذلك، منصرفة عنه، خالية من الصدق والإخلاص؛ فكأن قلوبَهم مهاجِرَةٌ لألسنتهم وأبدانهم، كما أنهم : «لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا» بفتح الدال المهملة، ويجوز ضمها مع إسكان الباء، والمراد به: أنهم يُصَلُّون الصلاة فى آخر وقتها، أو لا يحضرون إلى المسجد إلا حين يوشك الإمام أن يفرغ من الصلاة، كما أنهم لايصلون بالليل لشدة صخبهم وصياحهم بالنهار، ورفع أصواتهم فيه بالمجادلة والخصومة وغير ذلك، وصدق الله عَزَّ وَجَلَّ حيث يقول فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء][٢٢].

نحوه عن إسحاق بن بكر بن أبى الفرات المدنى: قال فيه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الراوى قال فيه الذهبى وغيره: مجهول، ولكن ذكره ابن حبان فى الثقات، وصحح له الحاكم ووافقه الذهبى، فهو قد عَرف بعضُهم شخصَه وحاله فهو على الستر –على الأقل– ويكون حديثه لايقل عن درجة الحسن، ثم إن الذهبى لم يذكره فى ميزان الاعتدال، والأغرب منه أن يوافق الحاكم على تصحيح حديثه، ينظر تهذيب التهذيب ٢٤٧/١، والمسند تحقيق الشيخ أحمد شاكر ٣٧/١٥، ٣٨، ٥٠، ٥١ والحديث رقم ٧٩١٣ وأقول: لعل الذى جعل الحافظ الذهبى يحكم عليه بالجهالة: هو أنه لم يرو عن أحد غير سعيد بن أبى سعيد المقبرى، ولم يرو عنه أحد سوى عبدالملك بن قدامة كما فى هذا الحديث وَٱللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما بقية رجال الإسناد؛ فثقات أخرج لهم الجماعة. تهذيب التهذيب ٤١٤/٦، ٤١٥.

(٢٢) ينظر: القاموس ص ١٣٤٣ مادة: غلل، ومقاييس اللغة ٣٦٠/٥ مادة: نهب، والفائق فى غريب الحديث ٣٧٠/١، وبقية المراجع المدونة بالهامش رقم٧.

وكان ابن مسعود يقول فى خطبته: الشباب شعبة من الجنون، وشر الروايا روايا الكذب، ومن يَنوِ الدنيا تعجزه، ومن الناس من لا يأتى الصلاة إلا دبرا، ولا يذكر الله إلا مهاجرًا، أى: يهاجر قلبه لسانه ولا يواطئه على الذكر.

وأخرج الطيالسى فى مسنده بسند صحيح على شرط الشيخين، عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الْمُنَافِقُونَ الْيَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَوْمَئِذٍ يَكْتُمُونَهُ، وَهُمُ الْيَوْمَ يُظْهِرُونَهُ»(٢٣).

وحذيفة بن اليمان هذا: صحابى ابن صحابى، وكان صاحب سر رسول الله ﷺ حيث أعلمه بأسماء المنافقين، وله علم واسع بأحاديث الفتن، وقد توفى فى أول خلافة على بن أبى طالب سنة ست وثلاثين من الهجرة(٢٤)، وهو يقول مقالَته المتقدمة عن المنافقين الذين كانوا لا يملكون سوى الأمانى، فكيف لو رأى اليوم من يجترئون على حرب الله ورسوله؟!!

أخرج عبدالرزاق في مصنفه عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: خَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي مَشْهَدٍ لَهُمْ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَصْلَعَ أَعْسَرَ أَيْسَرَ قَدْ أَشْرَفَ فَوْقَ النَّاسِ بِذِرَاعٍ عَلَيْهِ إِزَارٌ غَلِيظٌ، وَبُرْدٌ غَلِيظٌ قُطْنٌ، وَهُوَ مُتَلَبِّبٌ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَاجِرُوا، وَلَا تَهَجَّرُوا وَلَا يَحْذِفَنَّ أَحَدُكُمُ الْأَرْنَبَ بِعَصَاةٍ أَوْ بِحَجَرٍ، ثُمَّ يَأْكُلُهَا وَلْيُذَكِّ لَكُمُ الْأَسَلُ: الرِّمَاحُ، وَالنَّبْلُ»، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البيهقي بأطول من هذا من طريق أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَخَرَجْتُ فِي يَوْمِ عِيدٍ فَإِذَا رَجُلٌ مُتَلَبِّبٌ أَعْسَرُ أَيْسَرُ يَمْشِي

---

(٢٣) مسند أبى داود الطيالسى ص٥٥ ح٤١٠، وأخرجه من طريقه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٢٨٠، وينظر: كنز العمال ١/٣٦٧، ٣٦٨ ح١٦١٥، وصفة النفاق للفريابى ص٥٣، ٥٦.

(٢٤)الإصابة ١/٣٣٢، ٣٣٣، وراجع الجزء الأول تحت عنوان: «فقه الصحابة فى التخفى والاقتداء بهم فى ذلك عند الفتن».

مَعَ النَّاسِ كَأَنَّهُ رَاكِبٌ وَهُوَ يَقُولُ: هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا ، وَاتَّقُوا الْأَرْنَبَ أَنْ يَحْذِفَهَا أَحَدُكُمْ بِالْعَصَا ، وَلَكِنْ لِيُذَكِّ لَكُمُ الْأَسَلُ وَالرِّمَاحُ وَالنَّبْلُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَوْلُهُ هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا ، يَقُولُ: أَخْلِصُوا النِّيَّةَ فِي الْهِجْرَةِ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْمُهَاجِرِينَ عَلَى غَيْرِ نِيَّةٍ مِنْكُمْ فَهَذَا هُوَ التَّهَجُّرُ. قَالَ: وَكَلَامُ الْعَرَبِ أَعْسَرُ أَيْسَرُ وَهُوَ الَّذِي يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا سَوَاء(٢٥) أي: أنه يصفه بأوصاف حميدة.

ومعنى قول عمر بن الخطاب: «هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا» أي: أخلصوا الهجرة لله، ولا تتشبهوا بالمهاجرين فى القول دون الفعل، أو فى الظاهر دون الباطن؛ بل كونوا منهم موافقين لهم فى الأقوال والأعمال والأوصاف وجميع الأحوال، ولا تكونوا مثل المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون(٢٦).

وفى مثل هذه الأحوال يكون التشبه مدحًا وليس قدحًا، كما ثبت عن عبدالله بن عمر، وحذيفة بن اليمان من جوامع كلم رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢٧).

---

(٢٥)المصنف: كتاب: المناسك/باب: صيد العراض ٤٧٧/٤ ح٨٥٣٣، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب: الصيد/ باب الصيد يُرمَى بحجر أو بندقةٍ ٤١٧/٩ ح١٨٩٤٥.

(٢٦) يراجع فى ذلك: الفائق فى غريب الحديث ٢٥١/٢، ٢٥٢، ٢٩٨/٣ والنهاية: مادة هجر.

(٢٧) حديث حسن أخرجه أبو داود: كتاب اللباس/ باب لبس الشهرة ٣١٤/٤ ح٤٠٣١، والإمام أحمد فى المسند ٥٠/٢، وصححه الشيخ أحمد شاكر تحت رقم ٥١١٤، عن ابن عمر، وفى سنده عندهما: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان الشامى، قال أبو داود: ليس به بأس، وكان فيه سلامة، وقال أبو حاتم والفلاس ودُحيم: ثقة، وذكره ابن حبان فى الثقات، وكان ابن المدينى حسن الرأى فيه، فقال: ابن ثوبان رجل صدق لابأس به، وقد حمل عنه الناس، وضعفه النسائى وغيره، وقال أحمد: كان عابد أهل الشام، لم يكن قويًا فى الحديث، وقال ابن معين: ضعيف، يكتب حديثه على ضعفه، وكان رجلاً صالحًا. تهذيب التهذيب ١٥٠/٦، ١٥١، وميزان الاعتدال ٥٥١/٢، وقال ابن حجر: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان: مختلف فى توثيقه، وحسَّن الحديث السيوطى بشاهده عن حذيفة عند الطبرانى فى الأوسط وقال الهثيمى عنه: وفى سنده على بن غراب وقد وثقه غير واحد، وضعفه بعضهم، وبقية رجاله ثقات. انظر: المعجم الأوسط ١٥١/٩ ح٨٣٢٣، ومجمع الزوائد ٢٧١/١٠، وفتح البارى ٩٨/٦، وفيض القدير ١٠٤/٦.

الْهِجْرَةُ بِمَعْنَى الشَّىْءِ الْعَظِيمِ الَّذِى لاَ نَظِيرَ لَهُ

وهذا فرع رابع للهجرة تقول العرب: هذا شىء هَجْرٌ – بفتح الهاء وسكون الجيم – أى: لا نظير له، فكأنه لمباينته الأشياء: قد هجرها وفارقها، ويقولون: هذا أهجر من هذا: أى أكرم منه وأفضل وأعظم... ونحو ذلك من أفعل التفضيل.

وهذه بعض أمثلةٍ لذلك من كلامهم، يقولون: ذهبت الشجرة هَجْرًا، أى: طولاً وعظمًا، ونخلة مُهْجِرَة، أى: طويلة عظيمة، مفرطة فى الطول والعِظَم، وناقة مُهْجِرَة، أى: فائقة فى الشحم والسير، وبعير مُهْجِر، وهو الذى يتناعته الناس، ويهجرون بذكره غيرَه، وأَهْجَرَتِ الجاريةُ، أى: شبت شبابًا حسنًا.

والهَجُرُ: الحوض العظيم الواسع والقدح الضخم، الهَجِرُ – بكسر الجيم – الحسن الكريم، الجيد النجيب الجميل، يقال كبش هَجِرٌ، أى: حسن جميل، ومنه قول الأعرابية حين قال لها معاوية: هل من غذاء ؟ فقالت: نعم خبزٌ خميرٌ، ولبن هجيرٌ، وماء نميرٌ أى: ماء طيب عذب(٢٨).

الهِجِّيرُ: الدَّأْبُ وَالْعَادَةُ

وهذا فرع خامس للهجرة، وهو: (الهِجِّير) –بكسر الهاء والجيم المشددة– وهو ما يجعله المرء دأبه وديدنه وعادته، قال الزمخشرى: يجوز أن يكون اسمًا للفعلة التى يلزمها الرجل ويهجر إليها ما سواها، وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يطوف بالبيت وهو يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة]، ما له هِجِّير غيرها(٢٩) يعنى أنه لزم هذا الدعاء دون غيره.

---

(٢٨) راجع الفائق فى غريب الحديث ٤/ ٩٤، والقاموس المحيط ص٦٢٧ واللسان: مادة هجر.

(٢٩) انظر الفائق ٤/ ٩٤.

والمعنى الذى تضمنه هذا الفرع قريب من الذى قبله.

وكذلك المهاجرون لما عرفوا دين الله عَزَّ وَجَلَّ: لزموه وتمسكوا به ولم يحيدوا عنه وهجروا بسببه كل ما سواه.

وهكذا تعددت الأساليب العربية والنصوص الشرعية فى استعمالات كلمة الهجرة وما يشتق منها من معانٍ، قد ذكرنا بعضها؛ مع ضرب الأمثلةِ لكل منها، والحمد لله على التوفيق.

الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ

إن مفارقة الوطن ليست شيئًا سهلاً؛ بل إنها فى حكم الشرع مساوية للقتل الذى هو من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

قال الحافظ ابن كثير: يُخبر تعالى عن أكثر الناس: أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا فى علمه تبارك وتعالى بما لم يكن: لو كان؛ كيف كان يكون، ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما يُنْهَونَ عنه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء].

ولربما يستبعدُ كثيرون من الناس وجودَ تلك النماذج من المهاجرين الذين تركوا أرضهم وفارقوا مجتمعهم الذى نشأوا فيه وتربوا بين دروبه: فقصَّ اللهُ علينا مثلاً واقعيًّا بالمنافقين فى المدينة الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ أيمانًا مُغلظة: لئن أمرهم بالخروج ليخرجُنَّ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: لا تحلفوا، فقد عرفنا طاعتكم إنها قولٌ؛ لا فعلَ معه، وكذبٌ؛ لا صدقَ فيه، وهذا خُلُقكم؛ وتلك سجيتكم، والمطلوب منكم: أن تكون طاعتكم بالمعروف مطابقة لأقوالكم لا كذب فيها ولا مخادعة، وبدون حلف ولا أيمان، لأن الخبير بكم والرقيب

عليكم يعلم السر وأخفى، مطلعٌ على ضمائركم، لا يخفى عليه شيء من بواطنكم، وعليكم أن تَعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما التزم بهما المؤمنون الصادقون، وإن توليتم وأعرضتم بعد البلاغ والبيان فإن مرجعكم إلى الله وحسابكم عليه وحده لا شريك له، وذلك واضح فى قوله تبارك اسمه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور](٣٠).

والمقصود من تلك الآيات: بيان شدة الخروج من الوطن على نفس الإنسان الذى درج على أرضه، وتربى بين ربوعه، وعاش فيه بين أهله وذويه، وأن ذلك الفعل يَعْدِلُ قتل النفس وإزهاقَها.

ففى الصحيحين وغيرهما، عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النبى ﷺ عَنْ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ»(٣١) «وَيْحَكَ» كلمة ترحم تقال لمن وقع فى هلكةٍ لا يُطِيقُها، أو مَشقَّةٍ لا يتحملها، فكأنه ﷺ علم أن الأعرابى لا يستطيع تحمل شدائد الهجرة ومتاعبها فأشار عليه بتركها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: والمراد بالهجرة التى سأل عنها هذا الأعرابى هى ملازمة المدينة مع النبى ﷺ وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبى ألَّا يقوى عليها، ولا يقوم

---

(٣٠) تفسير الإمام ابن كثير ٢/٣٠٩، ٦/٨٢، ٨٣ باختصار وتصرف.

(٣١) صحيح البخارى: كتاب الزكاة/ باب زكاة الإبل ٣/٣١٦، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب المبايعة بعد فتح مكة ٣/١٤٨٨، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو ٣/٦ ح٢٤٧٧، بسند حسن، ومسند أبى يعلى ٢/٤٩٢ ح١٢٦٦ بسندٍ ضعيف، لكن متن الحديث فى الصحيحين كما قدمنا.

بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التى سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير فى مكانك وحيث ما كنت فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئًا والله أعلم(٣٢).

ومن هذا الحديث وتلك الآيات: نعلم أن إخراج الناس من ديارهم وتهديد المؤمنين فى أوطانهم جريمة لا يُقِرُّها شرعٌ، ولا يُسَوِّغُها عقلٌ، وإنكارها مركوزٌ فى الأخلاق القويمةِ، والطبائع المستقيمةِ على طول الزمانِ وامتداده، قال تعالى فيما أخذه على بنى إسرائيل من عهود ومواثيق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة].

ومن ثَمَّ: حذر سبحانه عباده المؤمنين أشد التحذير، من موالاتهم للكافرين، أو مهادنتهم؛ بل أكد عليهم وجوب مباينتهم ومفاصلتهم، وحرَّم عليهم التشبه بهم فى صفةٍ من الصفات، أو الركون إليهم بحالٍ من الأحوال، وذلك لأن ما يفعلونه بهم من الإخراج، ويوقعونه عليهم من التعذيب والإيذاء: كفيل بأن يؤصل العداوة بينهم، وحريٌّ بغرس البغضاء فى نفوسهم، قال تعالى فى افتتاحية سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ

(٣٢) شرح النووى لصحيح مسلم ٩/١٣، والنهاية فى غريب الحديث ٥/٢٣٥، وبذل المجهود ١١/٣٧٠.

تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله سبحانه فى السورة نفسها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم استحثهم على مقاتلتهم بأبلغ عبارة، وحضهم على مناضلتهم بأفصح بيان، وذلك فى قوله جل وعلا: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وذلك حتى تستقيم الموازين فى الأرض، ولايستشرى الباطل، أو يعم الفساد: كما قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وإذا كان القرآن الكريم قد صور بشاعة هذه الجريمة التى هى طرد المؤمنين من أوطانهم: بما يقشعر له بدن كل مسلم، وتشمئز منه نفسه، فإن الذى يقارن ما كان عليه الجاهليون فى أوائل القرن السابع الميلادى وما قبله مع ما كانوا عليه من شرك وأمية... بما عليه الناس اليوم فى هذا القرن الحادي والعشرين: مع ما يدعونه من تدين، وما يزعمونه من تحضر... فإنه سيرى بأدنى تأمل: ما تتفطر منه القلوب، وتتفتت منه الأكباد، وتذهل منه العقول... لِما يجدُه من الفرق الشاسع بين ما عليه هؤلاء من الفظاظة والفظاعة والغلظة والقسوة... على إخوانهم وذويهم بما لا يقره شرع ولا يسوغه خُلق، وبين ما كان عليه أولئك من وفاءٍ بالعهد، ومحافظةٍ على العرض، واحترامٍ للآدمية، ومعرفةِ أقدارِ ذوى الفضل... ولا شك أن كل قارئٍ أَخْبرُ منى وأبصر بما عليه هؤلاء المتأخرون، وأنا سأُنبئُه عن شيء من خبر أولئك المتقدمين:

فهذا الحارث بن يزيد، وسماه السهيلى مالكًا، ولَقَبُهُ: ابن الدَّغِنَة- بفتح المهملة المشددة، وكسر المعجمة المخففة، وفتح النون المخففة- سيد الأحابيش: وهم بنو الهُون- بضم الهاء- وبنو الحارث من كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبَّشوا- أى: تجمعوا- وتحالفوا عند جبل صغير يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، وكانوا حلفاء بنى زُهرة من قريش، وكان يُضرب بهم المثل فى قوة الرمى: قد لقى أبا بكر الصديق بعد مسيرة يوم أو يومين حين خرج من مكة مهاجرًا إلى أرض الحبشة لما اشتد عليه أذى الكفار، فسأله ابن الدَّغِنَة هذا- وهو من المشركين-: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى، وقد ورَّى أبو بكر بهذا الجواب، ولم يفصح عن جهة مقصده لكون ابن الدَّغِنَة أحد الكفار، ومن المعلوم أنه لايصل إلى أرض الحبشة إلا بعد أن يسير فى الأرض زمانًا فيصدق أنه سائح، قال ابن الدَّغِنَة: والله! إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم؛ ارجع وأنت

فى جوارى[٣٣].

وهذه هى القصة كما ترويها لنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وكما أخرجها البخارى فى صحيحه بسنده فى أكثر من موضع.

تقول الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ[٣٤]، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ: سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ وَلا يُخْرَجُ، إِنَّكَ! تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً! يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، لَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلا يَسْتَعْلِنُ بِصَلاتِهِ، وَلا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ

(٣٣) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٢/١: ٣٧٤، والروض الأنف ٣٣٦/٣، ٣٣٧، ٣٥٢، وفتح البارى ٢٣٣/٧ وضبَط أهل اللغة لفظ: (ابن الدَّغِنَة) بضم المهملة المشددة، والمعجمة المخففة، وفتح النون المشددة هكذا: ابن الدُّغُنَّة، وما ذكرناه من ضبط فى الصلب هو المعتمد عند المحدِّثين، والله أعلم.

(٣٤) (بَرْكَ الْغِمَاد) بفتح الموحدة التحتانية، وسكون الراء، وحكى كسر أوله والغماد بكسر المعجمة وقد تضم وتخفيف الميم، موضع على خمس ليال من مكة جهة اليمن، وقيل فيه غير ذلك. فتح البارى ٢٣٢/٧، ومراصد الاطلاع ١٨٧/١.

دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَقَذَّفُ[٣٥] عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِك، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ...» الحديث مطولاً[٣٦]، وستأتى بقيته بعدُ مع غيره من فوائد إن شاء الله تعالى تحت عنوان: «يوم الهجرة».

ومعلومٌ أن الذى افزع الكفار وأهاجهم من صنيع أبى بكر هو ما عُرِفَ من رقة قلوب النساء والشباب، وسرعة استجابتهم لدين الإسلام، ومبادرتهم فى الدخول فيه.

---

(٣٥)فى رواية: (فَيَنقَذِفُ) وفى أخرى: (فيتقصَّف) والمعنى: أنهم يتزاحمون عليه، ويتدافعون حتى يتساقط بعضهم على بعض ويقعون عليه. فتح البارى٧/ ٢٣٤ بتصرف.

(٣٦) هذا الحديث تكرر فى صحيح البخارى تسع مرات، وأول موضع له فى كتاب الصلاة/ باب المسجد يكون فى الطريق من غير ضرر بالناس ١/ ٥٦٣، ٥٦٤ ح٤٧٦، وبنحو اللفظ المذكور فى: كتاب الكفالة/ باب جوار أبى بكر فى عهد النبى ﷺ وعقده ٥/ ٤٧٥، ٤٧٦، وبلفظه فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٣٠: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وقال الحافظ ابن كثير: تفرد الإمام البخارى بهذا الحديث. البداية والنهاية ط دار الفكر ٣/ ٩٤، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه: فصل فى هجرته ﷺ/ باب ذكر وصف كيفية خروج المصطفى من مكة لمَّا صعب الأمر على المسلمين بها، ٨/ ٦٠: ٦٢ ح٦٢٤٤ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.

والأوصاف التى وصف بها ابن الدغنة أبا بكر قد سبق أن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصفت بها رسول الله ﷺ حين جاءها فزعًا من هول ما رأى لأول مرة من صورة المَلَكْ، وشدة ما لقيه من ثِقَلِ الوحى، كما مر ذلك فى حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحى، وفى هذا دليل على أن العرب برغم ما كانوا فيه من جهالة، إلا أنهم كانوا يعرفون لذوى القَدْرِ أقدارَهم، ولأصحابِ الفضل فضائلَهم، ويُنزلونهم منازلهم، وقد سبق فى الجزء الأول نماذج للأنبياء والمرسلين مع أممهم وأقوامهم ليكونوا أسوة لمن بعدهم، وذلك تحت عنوان: «مُحَاصَرَةُ المُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ وما يُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ».

وسيأتى مزيدٌ من الأمثلة لذلك -إن شاء الله تعالى- فى البحوث المتوالية للهجرة النبوية، والله الموفق.

وهذا أكمل الخلق وصفوتُهم ﷺ قد أحس بهذا الألم من أول ما أعلمه ورقةُ بن نوفل أن قومه سيخرجونه من هذا البلد، وذلك واضحٌ فى قوله: لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ... الحديث(٣٧).

وقد استبعد ﷺ أن يخرجه قومه، لأنه لم يكن هناك سببٌ يقتضى إخراجَه من وطنه، وذلك لما عرفوه عنه صلوات الله وسلامه عليه من جميل الخصال، ومكارم الأخلاق التى سبق من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقريرها له ﷺ ووصفه بها، قال السهيلى: يؤخذ من قوله ﷺ «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» شدة مفارقة الوطن على النفس، فإنه سمع قول ورقة: إنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذَكر له الإخراج تحركت نفسه لحب الوطن وإلفِه، فقال: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» ويؤيد ذلك: إدخال الواو بعد همزة الاستفهام، مع اختصاص الإخراج

---

(٣٧) متفق عليه، واللفظ المذكور هنا مِنْ: صحيح البخارى، فى: كتاب بدء الوحى ١/ ٣٢.

بالسؤال عنه، فأفاد أن: الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع، ويؤكد ذلك: أن الوطن المشار إليه: حرم الله، وجوار بيته، وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل كلام السهيلى مُلَخَصًا: ويحتمل أن يكون انزعاجه ﷺ من كلام ورقة كان من جهة خشية فوات ما أمَّله من إيمان قومه بالله، وإنقاذهم به من وضر الشرك– أى: دنسه وتبعاته– ومن عذاب الآخرة، وليتم له المراد من إرساله إليهم، ويحتمل أن يكون انزعج من الأمرين معاً(٣٨).

وفى الحديث الصحيح، عن عبدالله بن عدى قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ(٣٩) يَقُولُ– مخاطبًا مكة-: «وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ! لَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ: مَا خَرَجْتُ»(٤٠).

---

(٣٨) فتح البارى ١٢/ ٣٥٩.

(٣٩) بفتح المهملة والواو، بينهما زاى ساكنة، التل الصغير، وكان عندها سوق مكة، ثم ضم إلى المسجد الحرام لما زيد فيه. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٥٥.

(٤٠) جامع الترمذى: كتاب المناقب/ باب فى فضل مكة ٥/ ٦٧٩ ح٣٩٢٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس، عن الزهرى نحوه، ورواه محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ وحديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبدالله بن عدى بن حمراء عندى أصح، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب الحج/ باب فضل مكة ٢/ ٤٧٩، ٤٨٠ ح٤٢٥٢ : ٤٢٥٤ وفيه: (بالجرول) بدل (بالحزورة) وهى: مكان غرب الكعبة، دخل فى توسعة المسجد الحرام، وسنن ابن ماجه: كتاب المناسك/ باب فضل مكة ٢/ ١٠٣٧ ح٣١٠٨، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٣٠٥ عن عبدالله بن عدى، وعن أبى هريرة، الذى أشار إليه الترمذى، وعن بعضهم – يعنى: أصحاب النبى ﷺ– وسنن الدارمى: كتاب السير/ باب إخراج النبى ﷺ من مكة ٢/ ٣١١ ح٢٥١٠، وينظر: الخريطة رقم: ٣٨ من كتاب: «أطلس تاريخ الإسلام» ص٦٢.

وله شاهد من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ! وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ» أخرجه الترمذى وحسنه(٤١).

وقد ظل ذاك الإحساس يمور فى صدر النبى ﷺ وهو فى طريق هجرته حتى طمأنه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، وقد فسرها ابن عباس فقال: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ إلى مكة. كما ورد ذلك في: كتاب التفسير من صحيح البخارى.

ثم أضف أخى الدارس إلى ما لقيه المصطفى ﷺ من الألم النفسى والبدنى الذى نزل به حين خروجه مهاجرا من مكة التى ولد بها وعاش فى أرجائها أكثرمن خمسين سنة.. ما كان يعانيه ﷺ من الإيذاء من أجل كل صحابى أُخرج من بلده وهاجر من أرضه دون ذنب أو جريرة إلا أنه رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً! وصدق القائل:

وَأَقتَلُ داءٍ رُؤيةُ العَينِ ظالِمًا ۞۞۞ يُسيءُ ويُتلَى حمَدُهُ فى المَحافِلِ

طَلائِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ

ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق: أن أبا سلمة بن عبدالأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة(٤٢).

وفى صحيح البخارى، عن البراء بن عازب قال: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ

(٤١) ينظر: جامع الترمذى، فى: الكتاب والباب المتقدمين ٦٧٩/٥، ٦٨٠ ح٣٩٢٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٨/١ من طريق ابن إسحاق بدون إسناد، وابن حجر: فتح البارى ٢٦١/٧ لذلك قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن أبا سلمة أول بيتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ. صحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند المصيبة ٦٣٢/٢.

أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِنْ الْمُفَصَّلِ(٤٣).

والمعنى أن البراء قد حفظ قصار السور، ثم توجه باقى الصحابة شيئًا فشيئًا، وخرج من بقى من المسلمين مهاجرين إلى النبى ﷺ فى المدينة المنورة، وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرًا، حتى لم يبق بمكة إلا من غُلِبَ على أمره من المستضعَفين.

مُحَاوَلاتٌ فَاشِلَةٌ لإعَاقَةِ الْهِجْرَةِ

سعت قريشٌ بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرةِ إلى المدينة، وإثارةِ المشاكلِ أمام المهاجرين، مرةً بحجز أموالِهم ومنعِهم من حملها، ومرةً بحجز زوجاتِهم وأطفالِهم، وثالثةً بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكنَّ شيئًا من ذلك كله لم يُعِقْ موكبَ الهجرة.

وذلك لأن المهاجرين كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم، والتضحية بالنفس والنفيس طلبًا لرضوان الله جَلَّجَلَالُهُ، وفى النماذج التالية شرحٌ لذاك الإجمال:

(٤٣) صحيح البخارى ٧/٢٥٩، ٢٦٠ ح٣٩٢٥.

بيتُ أبي سَلَمةَ أوَّلُ من هَاجرَ إلى المَدِينَةِ

قالت أم المؤمنين أم سلمة(٤٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا ابْنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أَمْسَى، سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي -أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ- فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِالدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا اللَّهُ

---

(٤٤) مشهورة بكنيتها، واسمها: هند بنت أبى أمية، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ولما مات زوجها أبو سلمة بن عبدالأسد تزوجها رسول الله ﷺ، ينظر: الإصابة لابن حجر ٨/ ١٥٠، وقد ذكر الواقدى أن عمرها كان عند وفاتها أربعًا وثمانين سنة، وبينت الروايات الصحيحة أنها كانت موجودة فى أيام ثورة ابن الزبير على يزيد بن معاوية، فقد توفيت بعد سنة ٦١ من الهجرة، وبذلك يكون عمرها عند الهجرة ٢٣ سنة، وعند زواجها بالنبى ﷺ ٢٧ سنة، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَبُنَيَّ هَذَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوى بى، فو الله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّي إلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، قَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ- وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ(٤٥).

وقد سُقتُ الخبر بطوله لما فيه من دلالةٍ على الصعوبات التى واجهها المهاجرون، وهى تشيرُ إلى أثر العصبية فى اتخاذ العشائر القرشية مواقفَها من الأحداث، فقد انحاز قومُ أبى سلمة إليه على الرغم من مخالفتهم له فى العقيدة.

ثم إن الخبرَ يكشف عن صورةٍ من صور المروءةِ التى عرفها المجتمعُ القرشيُّ قبل الإسلام تتمثلُ فى موقف عثمانَ بنِ طلحةَ بن أبى طلحة العبدرى، حاجب البيت الحرام، وذلك جليٌ فى تطوعِه لمصاحبة أم سلمة وإحسانِ رُفقتها فى تلك الرحلة الشاقة الطويلة، حيث كان ماشيًا يقود

(٤٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٩/١، ٤٧٠ من رواية ابن إسحاق بإسنادٍ صالحٍ للاعتبار، فيه سلمة بن عبدالله بن أبى سلمة، وثقه ابن حبان، ولم يخالفه فيه أحدٌ بعده؛ بل قال الحافظ ابن حجر عنه: مقبول، ولم أجد له متابعًا، وعلى أية حال: فحديثه حسن، وقد ورد من طريق صالحة لإثبات الحدث تاريخيًا. ينظر: التاريخ الكبير للبخارى ٨٠/٤، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١٦٦/٤، والثقات لابن حبان ٣٩٩/٦، وتهذيب التهذيب ١٤٨/٤، ١٤٩، وتقريب التهذيب ص٢٤٨، والإصابة ٣٧٣/٤ ترجمة عثمان بن طلحة، وله تتمة تأتي في عنوان: «هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ ورفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم».

لها بعيرها الذى تركبه هى وابنها؛ مما يدل على سلامةِ الفطرةِ التى قادته أخيرًا إلى الإسلام بعد صلح الحديبية فى أول العام الثامن من الهجرة، إذ توجه مهاجرًا من مكة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة، وقد التقى به فى الطريق: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فأسلموا جميعًا، ثم شهدوا فتح مكة، وأعطى النبىُّ ﷺ مفتاح الكعبةِ لعثمان بن طلحة؛ فلعل إشراقَ نورِ الإسلامِ فى قلبه بدأ منذ هذه الرحلة مع المرأة المسلمة.

أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير

وذكر ابن إسحاق أن النبى ﷺ بعث مع الاثنى عشر رجلاً مصعب بن عمير العبدرى، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زرارة، وللدارقطنى من حديث ابن عباس، أن النبى ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم، فأسلم خلقٌ كثيرٌ من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زراره حتى فشا الإسلامُ بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم فى السَّنَة المقبلة حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلمًا وزيادة، فبايعوا وحظوا بلقاء رسول الله ﷺ وروى أبو داود من طريق عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة.

ولقد كان مصعب بن عمير أحد السابقين، أسلم قديمًا والنبى ﷺ فى دار الأرقم وكتم إسلامه خوفًا من أمه، فعلم بإسلامه عثمان بن طلحة فأخبر أهله بإسلامه فأوثقوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الأولى ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، ثم شهد أُحُدًا، وكان معه لواء المسلمين يومئذٍ إلى أن استشهد بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وفى الفردوس الأعلى أسكنه وآواه.

أخرج الترمذى وحسنه من حديث على بن أبى طالب قال: إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنْ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَى الْمُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»(٤٦).

فرحم الله مصعب بن عمير ورضى عنه حيث كان من السابقين الذين هاجروا الهجرتين وشهد بدرًا واستشهد بأُحُدٍ.

تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ

وهذا عمر بن الخطاب يهاجر سرًا مستخفيًا آخذًا بالأسباب وفق سنن الله الجارية، فيتفق مع غيره من المسلمين المستضعفين بمكة على موعدٍ يجتمعون فيه محدد الزمان والمكان، فإذا تأخر عنه أحدهم فليمض الباقون دون أن ينتظروه حتى لا يكشف أمرهم، وهذه هى القصة مرويةٌ بسندٍ حسن لذاته؛ بل صححها غير واحدٍ من الأئمة، والذى يُحَدِّثُ بها هو عمر بن الخطاب نفسُه، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَّعَدْتُ- يعنى: ضرب مع غيره موعدًا يلتقون فيه- لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى

(٤٦) ينظر فى ترجمة مصعب: كتاب الإصابة٦/٩٨، وفى مناقبه يراجع؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة أحد٧/٣٥٣ ح٤٠٤٥، وباب: من قُتل من المسلمين يوم أحد ٣٧٥/٧ ح٤٠٨٢، وجامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٣٥ ج٢ ص٥٥٨ ح٢٤٧٦، وكتاب المناقب/ باب فى مناقب مصعب بن عمير ٦٤٩/٥ ح٣٨٥٣، وانظر ما سيأتى تحت عنوان: «تمحيص للمؤمنين في بدر وأحد».

الْمَدِينَةِ، أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ التَّنَاضِبَ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَوْقَ سَرِفٍ، وَقُلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضِبِ، وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ، وَفُتِنَ فَافْتُتِنَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا، حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَكَلَّمَاهُ وَقَالَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَاكَ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَاكَ، فَرَقَّ لَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دينك فَاحْذَرْهُمْ، فو الله لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطَتْ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ. قَالَ: فَقَالَ: أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي، وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخُذُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. قَالَ: فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا، فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ، فَالْزَمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ، فَانْجُ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَا بن أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَظْتُ بَعِيرِي هَذَا، أَفَلَا تُعْقِبَنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَنَاخَ، وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ، ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ، وَفَتَنَاهُ فَافْتُتِنَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ: أَنَّهُمَا حِيْنَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوثَقًا، ثُمَّ قَالَا: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، هَكَذَا فَافْعَلُوا بِسُفَهَائِكُمْ، كَمَا فَعَلْنَا بِسَفِيهِنَا هَذَا(٤٧).

---

(٤٧) هذه الجزئية من قول ابن إسحاق لما فى إسنادها من جهالة: بَعْضُ آلِ عَيَّاشٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ، قَالَ: فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ اُفْتُتِنَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ! قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ، وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥﴾ [الزمر].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ، وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي: فَلَمَّا أَتَتْنِي جَعَلْتُ أَقْرَؤُهَا بِذِي طُوًى -وادٍ بمكة-، أُصَعِّدُ بِهَا فِيهِ وَأُصَوِّبُ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهمّ فَهِّمْنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا، وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي، فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ(٤٨).

وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به: بثكلِ أمه، وَتَيْتِيم ولده، وترميلِ زوجه... فلم يصح، وإن تناقله بعض كُتَّاب السير القدامى والمعاصرين(٤٩)، والذى صح عن

(٤٨) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٤/١ بإسنادٍ حسن لذاته، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث، ومن طريق ابن إسحاق: أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤٣٥/٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وقال الهيثمى: رواه البزار ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٦١/٦، وانظر روايات أخرى للواقدى نقلها ابن سعد، وكأنها اختصار لمتن ابن إسحاق، وفيها: وكنا إنما نخرج سرًا. الطبقات الكبرى ٢٧١/٣.

(٤٩) الخبر أورده ابن الأثير بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة. أسد الغابة ١٥٢/٤، ١٥٣ ط الشعب، القاهرة، وشرح المواهب اللدنية ٣١٩/١، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣١٥/٣، ٣١٦ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، كلهم بإسنادٍ فيه

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى استخفائه بهجرته: هو الموافق للعقل والنقل، فما كان عمر ليغتر بقوته وشجاعته ويفتح بذلك ثغرةً يدخل منها الأعداء لحرب أولياء الله، وقد ورد فى الحديث المتفق عليه قول رسول الله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ...».

وقد استقر كثيرٌ من المهاجرين فى قباء فى مكان يسمى: العُصْبة، قبل مَقدَمِ رسولِ الله ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبى حذيفة يؤمهم فى مسجد قباء، لكونه أكثرَهم قرآنًا(٥٠).

ثم تتابع المهاجرون أرسالاً إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ

ولما انقضى موسم الحج فى شهر ذى الحجة من العام الثالث عشر للبعثة، وبايع النبى ﷺ الأنصار البيعة الأخيرة عند العقبة فى أوسط أيام التشريق: اعتزم رسول الله ﷺ أن يهاجر، ويلحق بالمسلمين فى المدينة من المهاجرين والأنصار، ومما ينبغى أن نعلمه أيضًا: أن رسول الله ﷺ كان يقدم المثل الذى يطيقه عامة الناس، وذلك واضحٌ فى الكثير من شأنه ﷺ، حيث كان ﷺ يقدم الضعفاء ويكرمهم، ويلازم المتواضعين والمخبتين ويُجِلُّهم، كما أمره الله عز وجل فى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

مجاهيل ثلاثة، ومن عجبٍ: أنهم ذكروا أيضًا القصة الصحيحة التى رواها عمر بنفسه، ولكن دون تمحيص. ينظر: دفاع عن الحديث النبوى والسيرة ص١٤٣ للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، والسيرة النبوية الصحيحة ٢٠٤، ٢٠٥، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٥٠) الحديث فى صحيح البخارى: عن عبدالله بن عمر ٢/ ١٨٤ ح٦٩٢، و١٣/ ١٦٧ ح٧١٧٥.

وهو ﷺ القائل فى صحيح الحديث عنه: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال: «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ: فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»(٥١).

وقد سبق أن علمنا: أن جهره ﷺ بالدعوة، واستخفاءه بها كان من باب التلوين فى الدعوة، والتنوع فى أساليبها، وسلوك كل سبيلٍ تؤدى إليها، كما قال سُبْحَانَهُ فى شأن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح].

ومن ثَمَّ: تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة؛ حتى هاجر معظمُ القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، كما هاجر ﷺ مستخفيًا ليضرب المثل للمستضعفين من المؤمنين، وقد مر قريبًا تحت عنوان: «تناصح المهاجرين وتعاونهم فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هاجر مستخفيًا مع عشرين من أصحاب النبى ﷺ كسائر مَن سبقوهم فى الهجرة، وليس كما هو شائع بين الذين لا يدققون فى توثيق الأخبار وتحقيق النصوص حيث يزعمون أن عمرَ هاجرَ علانيةً متوعدًا لقومه ومتحديًا لهم!.

(٥١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ٦/٨٨ ح٢٨٩٦، وفى سنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/٧٣ ح٢٥٩٤.

يَوْمُ الْهِجْرَةِ

إن وقائعَ يومِ الهجرةِ ليست بأقلَّ خطرًا ولا إعجازًا من أحداث ليلة الهجرة، فقد أخرج الإمامُ أحمد من طريقين، رجالهما رجالِ الصحيح، من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلاءِ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بُنَيَّةُ! أَرِينِي وَضُوءًا» فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ التُّرَابِ، فَقَالَ ﷺ: «شَاهَتْ الْوُجُوهُ» ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلاً مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا. الحديث صححه ابن حبان والحاكم(٥٢).

وله طريقٌ أخرى: عن ابن عباسٍ، عن فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: اجتمع مشركو قريش فى الحِجْر، فقال رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّةُ اسكنى» ثم خرج ﷺ فدخل عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسَهم ثم نُكِسُوا، فأخذ ﷺ قبضةً من ترابٍ فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فما أصاب رجلاً منهم إلا قُتِل يومَ بدرٍ. صححها الحاكم(٥٣).

---

(٥٢) مسند الإمام أحمد ٣٠٣/١ ح٢٧٦٢ (واللفظ له) وفى ٣٦٨/١ ح٣٤٨٥، وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص٤٠٩، ٤١٠ ح١٦٩١ ، والمستدرك: كتاب الطهارة ١٦٣/١ ح٥٨٣ ، ودلائل النبوة للبيهقى ٢٤٠/٦ ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٢٨/٨ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٥٣) هذه الرواية: صححها الحاكم، فى: المستدرك ١٥٧/٣ ح٤٧٤٢.

وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا تقص علينا وقائع الهجرة فى حديثها الطويل الذى تقدم شىءٌ منه تحت عنوان: «الطرد من الوطن كفصل الروح عن البدن» فتقول فيه: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً...» إلى أن قالت رَضِيَٱللَّهُعَنهَا فى ذاك الحديث: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ» وَهُمَا الْحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ، وَهُوَ: الْخَبَطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ؛ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ! قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ! بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا

عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ: لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا- أى: الذى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته، فيصير على هيئة الجبن- حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ(٥٤).

فهذا الحديث يُستفاد منه: أنه ﷺ كان يتردد على بيت أبى بكر كل يومٍ فى الصباحِ وفى المساء، لا يكاد يدع ذلك، ومن ثَمَّ ترجم له البخاري في كتاب الأدب بقوله: «بَابٌ: هَلْ يَزُورُ صَاحِبَهُ كُلَّ يَوْمٍ، أَوْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

فلما أُذِنَ له ﷺ بالهجرة جاء إلى بيت أبى بكر فى وقت الظهيرة على غير عادته وهو مستخفٍ، فأخبر أبا بكر بذلك، واختياره ﷺ وقت الظهيرة: لأن الناس تأوى إلى بيوتها للقيلولة فرارًا من الحر، وتَقَنُّعُه ﷺ يفيد شعوره بالخطر من حوله، فقد اعتزمت قريش قتله، ولا بد أنها ستعمد إلى رصد تحركه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال](٥٥).

---

(٥٤) هذا لفظ البخارى، فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٢٣٠/٧: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وأما عبدالله بن أريقط الديلى: فلم يذكره أحدٌ فى الصحابة سوى الحافظ الذهبى، حيث ذكره فى كتابه: «تجريد أسماء الصحابة» ٢٩٦/١ رقم: ٣١٣٢ ط دار المعرفة، بيروت، وينظر: الإصابة ٥/٤، و٢٤: ٢٦ فلعلهم أغفلوه لأنه لا رواية له، والحمد لله الذي أكرمه بالاسلام والصحبة لرسول الله ﷺ.

(٥٥) ينظر: فتح البارى ٢٣٢/٧: ٢٣٨ فى شرح الحديث المتقدم.

لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ

كان رسول الله ﷺ يعتصم بكلام ربه دائمًا، وكثيرًا ما كان يقرؤه ليستخفى به عن أعين المشركين، أخرج البزَّار بسندٍ حسن، وصححه ابن حبان – واللفظ له– من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبى لهبٍ إلى النبى ﷺ ومعه أبو بكرٍ، فلما رآها أبو بكر قال: يارسولَ اللهِ إنها امرأةٌ بذيئةٌ، وأخافُ أن تؤذِيَكَ، فلو قمتَ – يعنى: حتى لا ينالَكَ أذاها– قال ﷺ: «إنها لن تَرانِى» فجاءت فقالت: يا أبا بكر! إن صاحِبَكَ هَجانِى، قالَ: لا، وما يقولُ الشِّعْرَ، قالت: أنتَ عندِى مُصَدَّقٌ، وانصرفَتْ، فقلتُ: يارسول الله! لم تَرَكَ؟ قال ﷺ: «..لَمْ يَزلْ مَلَكٌ يَستُرُنى مِنها بجناحَيهِ»(٥٦).

فاستخفاؤه ﷺ عن أعين أعدائه بقراءته للقرآن مخافة كيدهم له، أو فتكهم به: ثابتٌ بصريح القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء].

ومعلومٌ أنه ﷺ: لا يغفل عن ذكره لربه، ولا يفتر عن تلاوته لكلام خالقه، وهو سبحانه الذى أنزل عليه فى مكة: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف].

وهذه رواية أخرى تعددت مخارجها تثبت ما وقع من ذلك فى ليلة الهجرة: فيروى ابن إسحاق قائلاً: فحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره: كنتم ملوك

(٥٦) مختصر زوائد البزار ٢/١٢١، ١٢٢ ح١٥٣٩، وكشف الأستار ح٢٢٩٤، وحسنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٧٣٨/٨، ولفظه من: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ٥١٦ ح٢١٠٣، وقد سبق له شاهد من حديث أسماء بنتِ أبى بكر فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان: «مَا لَقِيَهُ المصطفى ﷺ فِى إِقَامةِ الدِّينِ وحِمَايَةُ اللهِ لَهُ».

العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنن كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها، قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من صدر سورة يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾.

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًّا عَلَى الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صَدَقَنَا الذى حدثنا(٥٧).

(٥٧) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٣/١ بسند صحيح، من طريق: ابن إسحاق إلى محمد بن كعب القرظى، لكنه مرسل، ورواها ابن جرير: تاريخ الطبرى ٣٧٢/٢، ٣٧٣، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص١٥٩، ١٦٠، والبيهقى فى دلائل النبوة ٤٦٩/٢، ٤٧٠ ثم قال: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا، وهو شاهد آخر رواته ثقات، لكنه مرسل أيضًا، أخرجه

وقد بين ابن عباس حصار المشركين لبيت رسول الله ﷺ ابتغاء قتله، ومبيت عليٍّ على فراشه، ولحاقه ﷺ بالغار.

ولما علم المشركون ذلك فى الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت(٥٨) فتركوه.

وهى رواية حسنها كثيرون من الحفاظ، وليس هناك ما يدفعها من عقلٍ أو نقل؛ بل على العكس من ذلك: تؤيدها الآيات القرآنية الكثيرة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب وِفْقَ سنن الله الجارية، فلما انقطعت الأسباب: بقى له مددُ الكبيرِ الوهاب، فصنع له ربه ما لم يخطر له على بال.

ومما يدل على أخذه ﷺ بالأسباب: أنه كان دائمًا يبدأ بالإمكانات المتاحة، ويبذل قصارى جهده ما أمكنه ذلك، فإنه ﷺ لم يختر عند هجرته مكانًا تجاه المدينة فى شمال مكة من أعلاها؛ بل

عبدالرزاق فى تفسيره ١١٢/٢ ح٢٤١٥: عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمدًا لأفعلن ولأفعلن...، فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾ [يس]، فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو...؟ لا يبصره!!. وينظر: الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ٤٣/٧ ط دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٥٨) مسند الإمام أحمد ٣٤٨/١ بإسناد ضعيف، لكنه صالح للاعتبار، وقد حسنه ابن كثير فى البداية والنهاية ١٧٩/٣ وقال: وهو أجود ما روى فى قصة نسيج العنكبوت على فم الغار، وحسنه ابن حجر فى الفتح ٢٣٦/٧، وحسنه الزرقانى فى شرح المواهب ٣٢٣/١ وفى السند: عثمان بن عمرو بن ساج الجزرى، فيه ضعف، ووثقه ابن حبان، فحديثه صالح للاعتبار، ينظر: تهذيب التهذيب ١٤٥/٧، وتقريب التهذيب ٣٨٦.

اختار أقصى جبل جنوب مكة من أسفلها، وحدد غارًا يكمن فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع طالبوه، وهذا الغار إذا حاول أَحدٌ الآن الصعود إليه فإنه يأخذ من الشاب المشتد فى سيره أكثر من ثمانين دقيقة حتى يصل إلى الغار، فضلاً عن بضعة كيلو مترات يبعد بها الجبل عن المسجد الحرام؛ بل لقد تواعد رسول الله ﷺ مع أبى بكر الصديق أن يتقابلا عند مكان يسمى: بئر ميمون فى طريق مِنى، ثم ركبا منه إلى الغار فى الجهة المقابلة جنوب مكة، وقد ورد هذا فى حديثٍ طويلٍ، حسن الإسناد، أخرجه الإمام أحمد، يفيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته، حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فَلَبِسَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثوبه ونامَ مكان النبى ﷺ، واخترقَ رسولُ الله ﷺ حصارَ المشركين لِبَيتِه دون أن يرَوْه، بعد أن أوصى عليًّا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به، فيقول عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ نَائِمٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ،فَأَدْرِكْهُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الْغَارَ، قَالَ: وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ، كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيُّ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَوَّرُ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثَّوْبِ لا يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَلَئِيمٌ! كَانَ صَاحِبُكَ نَرْمِيهِ فَلا يَتَضَوَّرُ، وَأَنْتَ تَتَضَوَّرُ، وَقَدْ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ(٥٩).

كما سجل جَلَّجَلَالُهُ مناجاة نبيه ﷺ لرفيقه أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى القرآن المجيد بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

---

(٥٩) مسند الإمام أحمد ١/٣٣١ ح٣٠٦٢ وقد صححه الشيخ أحمد محمد شاكر، من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وفى سنده؛ أبو بلج: صدوق، وقال الهيثمى: رجال أحمد رجال الصحيح، غير أبى بلج الفزارى، وهو: ثقة وفيه لين. مجمع الزوائد ٩/١١٩، ١٢٠، وقال ابن حجر: أبو بلج صدوق ربما أخطأ. تقريب التهذيب ٦٢٥. وقد انفرد بهذا الحديث وقد قال ابن حبان: أرى ألَّا يحتج بما انفرد به من الرواية. المجروحين ٣/١١٢.

وهذا الذى وقع للنبى ﷺ قد أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به آحاد الأمة وأفرادها – بعد نبيها – الذين أيقنوا بالله وأخلصوا له، قال الإمام القرطبى المتوفى عام ٦٧١ من الهجرة: ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحِصنٍ منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك: أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحيةٍ عنه، فلم أَلبَثْ أن خرج فى طلبى فارسان، وأنا فى فضاءٍ من الأرض قاعدٌ ليس يسترنى عنهما شىءٌ، وأنا أقرأُ أول سورة يَسٍ، وغير ذلك من القرآن، فعبَرا عَلَىَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطانا – وكلمة: دِيَابْل بالفرنسية تعنى: جِنًّا أو شيطانًا – وأعمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبصارهم فلم يرونى، والحمد لله حمدًا كثيرًا على ذلك.

ونقل الإمام القرطبى، عن كعب الأحبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ذكر آيات كان النبى ﷺ يستتر بها من المشركين ثم قال: فحدثت بهم رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقامَ بها زمانًا، ثم خرج هاربًا، فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن، فصاروا يكونون معه على طريقه، ولا يبصرونه، قال الثعلبى: وهذا الذى يَرْوُونَهُ عن كعب حَدَّثْتُ به رجلاً من أهل الرِّىّ فأُسِرَ بالدَّيلم، فمكث زمانًا، ثم خرج هاربًا فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن؛ حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه[٦٠].

وهذا بلا شك يحصل لكل من استنفذ الأسباب التى يقدر عليها، وصدق فى التجائه لربه، وأحسنَ فى توكله عليه، كما قال عز فى علاه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق].

(٦٠) تفسير القرطبى ١٠/٢٦٩، ٢٧٠.

وقد حمل أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فى تلك الليلة ثروتَه ليضعها تحت تصرفِ رسولِ الله ﷺ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ عَبَّادًا حَدَّثَهُ عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةُ آلَافٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ؛ إِذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ. قالت أسماء: لَا وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ(٦١).

والقدر الذى حمله معه أبو بكر من ماله يساوى نصف الدية الشرعية، وهى ستة آلآف درهم ووزنها فى أيامنا من الفضة ٢٣٤٠٠ جرامًا عيار ٨٠، ومن الذهب ٢٤٥٠ جرامًا عيار ٢١.

وروى أَن الْمُشْركين كَانُوا يعلمُونَ محبَّة رَسُول الله لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فَذَهَبُوا لطلبه على بَاب أبي بكر وَفِيهِمْ أَبُو جهل، فَخرجت إِلَيْهِم أَسمَاء بنت أبي بكر فَقَالُوا لَهَا: أَيْن أَبوك؟ فَقَالَت:لَا أَدْرِي، فَرفع أَبُو جهل يَده وَكَانَ فَاحِشا خبيثاً فلطم خدها لطمة خرج مِنْهَا قُرْطهَا وَسقط، ثمَّ انصرفوا(٦٢).

ويقال: إن أبا جهل قال لرفقائه: اكتموا عنى هذا الفعل حتى لا أُفضَحَ بين العرب. ففى أى

---

(٦١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٨/١ بإسناد حسن، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك ٥/٣، والبيهقى فى دلائل النبوة ٤٨٠/٢ بإسنادٍ فيه انقطاع بين: يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، وبين أسماء، ولكن يحيى أخذ الخبر عن أبيه عباد فهو الذى يروى عن جدته أسماء، ومن ثم: فإن السند حسن، والله أعلم.

(٦٢) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس لحسين بن محمد الدِّيار بَكْري المتوفى ٩٦٦هـ ٣٢٨/١، وكتاب: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبدالملك بن حسين العصامي المكي المتوفى ١١١١هـ- تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ٣٤٩/١.

الدركات تصنف قبائح المعاصرين فى حق النساء؟!!

وكان خروج رسول الله ﷺ بِصُحْبَةِ أبى بكر إلى غار ثور جنوب مكة فى سحر ليلة الخميس فكَمَنَا فيه ثلاثَ ليال بأيامها كاملةً، بدأت بليلة الجمعة وانتهت بآخر يوم الأحد، وقريش تطاردهما سحابة النهار، وتبحث عنهما، وتقتفِى آثارهما... حتى انتهوا إلى باب الغار ووقفوا عليه؛ ولكن حال الله بينهم وبين الوصول إلى الرسول ﷺ وصاحبه.

ثم لما وقف المشركون على فم الغار الذى بداخله رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، لم يجترئ أحدٌ منهم على الدخول فى الغار ليستبرئه ويقطع الشك باليقين؛ حتى قال أحد المعاصرين الغربيين: لم أجد أغبى من أهل مكة؛ إذ وقفوا عند باب الغار ومحمد بداخله، فلم يدخل أحد منهم الغار ليفتشه بعد هذا العناء الطويل. لكن هذا الكافر لم يفقه أن الغباء جند من جنود الله القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

أما رسول الله ﷺ فقد كان فى معية الله يرتل كلامه؛ ليستخفى به عن أعين المشركين، كما كان يفعل ﷺ ذلك من قبل.

وأما الصِّدِّيق فقد كان قلقًا لا يَقَرُّ له قرار، من شدة خوفه على رسول الله ﷺ لاسيما بعد رؤيته لأقدام المشركين عند باب الغار، فيقول: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ ﷺ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ! اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»(٦٣).

وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

(٦٣) صحيح البخارى ٧/٢٥٧ ح٣٩٢٢، وصحيح مسلم ح٢٣٨١ عن أنس بن مالك.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة].

وقد ورد حديثٌ سنده ضعيفٌ جدًا، يفيد: أن الرسول ﷺ لما بات فى غار ثور أمر الله شجرة فنبتت فى وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن ذلك كان سبب صدود المشركين عن دخول الغار واستبرائه من داخله، ومثل هذه الأساطير كثيرًا ما تسربت إلى العديد من كتب السيرة.

وما أحسن ما عقب به الحافظ ابن كثير على حديث أنس الصحيح المتقدم الذى قال فيه أبو بكر الصديق: «لو أن أحدَهم نظر إلى قدميه لأبصرنا...» حيث قال: «وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبى ﷺ: «لو جاءونا من ههنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه. وليس هذا بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا؛ ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به، والله أعلم»(٦٤).

(٦٤) أخرجه ابن سعد: ٢٢٩/١ وفى سنده؛ أبو مصعب المكى: مجهول، وعوين بن عمرو: منكر الحديث، وسماه: (عون) وأخرجه البزار ٩/٢ ح١٣٤٠ مختصر زوائد البزار، وانظر: كشف الأستار ٢٩٩/٢، ٣٠٠ وفى إسناده: عوين بن عمرو، وهو منكر الحديث، لا شيء، وقد تفرد به، وشيخه؛ أبو مصعب: مجهول، والحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ٤٤٣/٢٠، ودلائل النبوة لأبى نعيم ٢٦٩/٦، ٢٧٠، ودلائل النبوة للبيهقى ٢١٣/٢، ٢١٤، والبداية والنهاية لابن كثير ١٨١/٣ وقال: غريب جدًا من هذا الوجه، وشرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣٣١/١، وسبل الهدى والرشاد ٣٣٩/٣، ٣٤٠، وقال الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنه لا يصح حديث فى العنكبوت والحمامتين: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٣٩/٣، وينظر

قال الشيخ محمد سالم البيحانى فى أرجوزته:

قَـد شَـرَحَ اللهُ تَعَـالَى صَـدْرَهْ … وَأَذِنَ اللهُ لَــهُ بِـالـهِـجْــرَهْ
فَـأَخبَرَ الصِّدِّيقَ وَاستَعَدَّا … بِنَـاقَـتَـيـنِ حَسَـنَتَينِ جِـدًّا
سُـلِّمَتَا إِلَى الـدَّلِيـلِ الـدَيلِي … وَهْوَ الذِّي أَسْرَى بِهِم فِي اللَّيْلِ
وَقَـرَّرَتْ قُـرَيشٌ أنْ تَمْـنَعَـهُ … مِـنَ الـخُـرُوجِ أَو تَـرَى مَصْرَعَهُ
وَلَمْ يَخَـافُوا مِن عِـقَـابِ رَبِّهِمْ … بَـل مَكَـرُوا وَمَكَـرَ اللهُ بِهِـمْ
وَمَـرَّ بَيـنَـهُـمْ وَهُـم يَـنتَـظِرُون … خُـرُوجَـهُ لَكِـنَّهُـم لَا يُبْصِرُون
وَاسْتَخْلَفَ القَوِيَّ فِي فِرَاشِـه(٦٥) … مَن كَعَلِيٍّ فِي ثَبَـاتِ جَـاشِـهِ
وَاخْـتَـبـأَ الصِّـدِّيقُ وَالـنَّبِيُّ … فِي غَـارِ ثَـورٍ وَغَـدَى الـتَّـيْمِيُّ
يَقُـولُ كَـادَ القَـومُ أَنْ يَـرَوْنَـا … لَـو طَـأطَأوا الرُّؤوسَ وَالعُيُونَا
وَالمُصطَفَى يَقُولُ نَحْنُ اثنَانِ … ثَـالِـثُـنَـا مُـنْـزِلُ الـقُــرآنِ
وَأَصْلَـحَـتْ زَادَهُـم أَسْـمَـاءُ … ذَاتُ الـنِّـطَـاقَـيـنِ كَمَا تَشَاءُ
وَانْطَلَـقُـوا بَعدَ ثَلاثٍ مَعَهُمْ … مَـوْلَى أَبِي بَـكْـرٍ يَـنْـفَـعُـهُـم
وَابنُ أُرَيْـقِـطٍ هُـوَ الـدَّلِيلُ … وَامْـتَـلأَتْ بِـالـرَّصَـدِ السَّـبِيلُ
قَـد جَـعَـلُـوا دِيَـتَـهُ لِمَن أَتَى … بِـهِ أَسِـيـرًا أَو قَـتِـيلاً أَو مَـيْـتَا
وَلِسُـرَاقَـةَ حَـدِيـثٌ يُـعْـرَف … سُـبحَـانَكَ اللَّهُمَّ أَنتَ المُنْصِف

التعقيب الأخير للحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ١٨٢.

(٦٥) فى أرجوزته: (الوصى)، وهذا يشير إلى أنه زيدى غير مغالٍ فى تشيعه كما كان من قبله الإمام الشوكانى، والله أعلم.

التَّأْرِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ

تواترت الأخبار بورود النبى ﷺ قباء يوم الاثنين لثمانٍ خلون من ربيع الأول في العام الأول من الهجرة النبوية، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٢٢م وكانت بداية العام الهجري في ليلة الجمعة غرة شهر الله المحرم للعام الأول من الهجرة الموافق ١٤ يوليو سنة ٦٢٢م، وكان له ﷺ من العمر يوم هجرته ثلاثةٌ وخمسون عامًا، والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان فى اليوم الثامن من ربيع الأول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م، وهذا لا يختلف مع التاريخ الذى ذكره الدكتور حسين مؤنس، كما نص فى كتابه ذاك: «أطلس تاريخ الإسلام» أن أول المحرم سنة واحد هجرية يقابل ١٦ يوليو سنة ٦٢٢م، وهو بداية التاريخ الهجرى.

وبِناءً على ما سبق نسجل هنا: أن هلال شهر صفر كان في ذاك العام ليلة السبت ١٢ أغسطس ٦٢٢م، وكان خروجه ﷺ من مكة إلى الغار فى ليلة الخميس العشرين من شهر صفر من العام نفسه، الموافق أول سبتمبر ٦٢٢م، ثم كان خروجه من الغار فى ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر صفر، الموافق ٥ سبتمبر٦٢٢م، واستغرقت الرحلة من الغار إلى قباء اثنى عشر يومًا، حيث كان وصولُه ﷺ يوم السبت السادس من ربيع الأول، الموافق ١٦سبتمبر ٦٢٢م، وفي حديث عبدالله بن عمر المتفق عليه أن رسول الله ﷺ «كَانَ يَأْتِي قُبَاءَ - يَعْنِي - كُلَّ سَبْتٍ، كَانَ يَأْتِيهِ رَاكِبًا وَمَاشِيًا»(٦٦).

وقد مكث ﷺ بقباء خمسة أيام كاملةٍ بلياليها أسس فيها مسجد قباء، ثم استقر ﷺ بالمدينة من ظهر يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيعٍ الأول، الموافق ٢٢سبتمبر ٦٢٢م، وهذا

---

(٦٦) صحيح البخاري ح/ ٧٣٢٦ وصحيح مسلم ح/ ١٣٩٩ الرواية رقم ٥٢١ وصحيح ابن حبان ح/ ١٦٣٢ وبوَّب عليه بقوله: «باب ذكر اليوم الذي يستحب إتيان مسجد قباء لمن أراده».

التأصيل التاريخي هو الموافق لوقفة عرفات في حجة الوداع ٩ من ذي الحجة في العام العاشر من الهجرة، الموافق ٥ مارس ٦٣٢م وكان يوم الجمعة، والحديث الوارد فى ذلك متفق عليه، والحمد لله رب العالمين.

ولما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة.

ولقد وُلد رسول الله ﷺ وبُعث، ولَحق بالرفيق الأعلى دون أن يؤرخ الناس بشىءٍ من ذلك؛ بل إنهم قد أغفلوا التاريخ وأهملوه وتركوه؛ لكنهم بعد ذلك استدركوه وأثبتوه، وهذا هو معنى الحديث الذى أخرجه البخارى فى صحيحه، في: باب التاريخ، ومن أين أَرَّخوا التاريخ؟ حيث قال: حَدَّثَنَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُالْعَزِيزِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلا مِنْ وَفَاتِهِ: مَا عَدُّوا إِلَّا مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ(٦٧).

فلما كانت خلافة عمر، وفى العام السابع عشر من الهجرة، وفى شهر شعبان على التقريب: استشار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أصحابَ رسول الله ﷺ: من أين يبدءُون التأريخ؟ فوفقهم الله وهداهم إلى بدئه ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ دخل فيه النبى ﷺ مع أصحابه المدينة، وهجروا أرض الشرك، وابتدءوا بناءَ المسجد، وعبدوا ربهم آمنين.

وهكذا اجتمعت كلمة المسلمين على بدء التأريخ من زمن الهجرة، وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبةً، فقال: كانت القضايا التى اتفقت له ﷺ ويمكن أن يُؤَرَّخَ بها أربعة: مولده، ومبعثه، وهجرته، ووفاته. فرجح عندهم جعلها من الهجرة؛ لأن المولد والمبعث لا يخلو

---

(٦٧) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار٧/٢٦٧ ح٣٩٣٤، والمستدرك على الصحيحين: كتاب الهجرة ٣/١٣ ح٤٢٨٥، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبى.

واحدٌ منهما من النزاع فى تعيين السَّنَة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما يُتوقَّع بذكره من الأسف عليه ﷺ، فانحصر فى الهجرة.

قال الحافظ ابن حجر فى شرحه للحديث المتقدم ما ملخصه: التاريخ: تعريف الوقت، ويقال أول ما أُحدِث التاريخ من الطوفان، وقد روى الحاكم فى الإكليل بسندٍ معضل، من طريق ابن جريج، عن أبى سلمة، عن ابن شهاب الزهرى: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة: أمر بالتاريخ فكُتِب فى ربيع الأول.

والمشهور أن ذلك كان فى خلافة عمر، وفى العام السابع عشر من الهجرة.

وأفاد السهيليُّ: أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ وهو أول الزمن الذى عز فيه الإسلام، وعَبَدَ فيه النبي ﷺ ربه آمنا، وابتدأ بناء المسجد: فوافق رأىُ الصحابةِ ابتداءَ التاريخ من ذلك اليوم، وفهمنا من فعلهم: أن قوله تعالى ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾: أنه أول أيام التاريخ الإسلامى.

وإنما أخروا البدء بالتاريخ من شهر ربيع الأول إلى شهر الله المحرم، لأن ابتداء عزمه ﷺ على الهجرة كان فى المحرم، إذ البيعة وقعت فى أثناء ذى الحجة وهى مُقَدِّمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة: هو هلال المحرم، فناسب أن يُجعل مُبتدأ التاريخ من أول السنة.

وذكروا فى الباعث لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على التأريخ من بدء الهجرة آثارًا عديدةً، منها:

ما رواه ابن أبى خيثمة من طريق ابن سيرين، قال: قَدِمَ رجلٌ من اليمن فقال رأيتُ باليمن شيئًا يسمونه التاريخ، يكتبونه من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: هذا حسن! فَأَرِّخُوا، فلما جمع على ذلك قال قومٌ: أرخوا للمولد، وقال قائلٌ: للمبعث، وقال قائلٌ: من حين خرج مهاجرًا، وقال قائلٌ: من حين توفى، فقال عمر: أَرِّخُوا من خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة، ثم قال: بأى

شهرٍ نبدأ؟ فقال قومٌ: من رجب، وقال قائلٌ: من رمضان، فقال عثمان: أَرِّخُوا المحرم؛ فإنه شهرٌ حرام، وهو أول السنة، ومنصرف الناس من الحج، قال: وكان ذلك سنة سبع عشرة، وقيل سنة ست عشرة فى ربيع الأول.

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم: الفضل بن دكين فى تاريخه، ومن طريقه الحاكم: إلى الشعبى أن أبا موسى كتب إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنه يأتينا منك كُتُبٌ ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم: أَرِّخْ بالمبعث، وبعضهم: أَرِّخْ بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فَأَرِّخُوا بها. وذلك سنة سبع عشرة، فلما اتفقوا، قال بعضهم: ابدءوا برمضان، فقال عمر: بل بالمحرم؛ فإنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه.

وروى البخارى فى الأدب، والحاكم من طريق ميمون بن مهران قال: رُفِعَ لعمر صكٌّ مَحِلُّه شعبان، فقال: أى شعبان؟! الماضى، أو الذى نحن فيه، أو الآتى!! ضعوا للناس شيئًا يعرفونه.

وروى الحاكم: عن سعيد بن المسيب قال: جمع عمر الناس فسألهم عن أول يوم يُكتَب التاريخ؟ فقال عليٌّ: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، ففعله عمر.

ثم قال الحافظ ابن حجر: فاستفدنا من مجموع هذه الآثار أن الذى أشار بالمحرم عمرُ وعثمانُ وعليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ(٦٨).

وهكذا: اتفق رأى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على بدء التاريخ من هجرة المصطفى ﷺ وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٦٨) فتح البارى ٢٦٨/٧، ٢٦٩بتصرف، والمستدرك ١٤/٣ ح٤٢٨٧، وصحح الحاكم أثر سعيد بن المسيب، وأقره الذهبى على ذلك.

اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بقباء أيامًا قلائلَ: خرج إلى المدينة، فروى البخارى أن ابن شهاب قال: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنْ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ، وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ – حصن – مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمْ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنْ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ، حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ(٦٩).

ويستفاد من هذا الحديث: أن أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم كانوا يخرجون إلى الحرة– وهى أرض ذات حجارة سود، كأنها أُحرقت بالنار من شدة سوادها– ينتظرون مقدم رسول الله عليهم، فيظلون كذلك، حتى يردهم حر الظهيرة، يفعلون ذلك كل

---

(٦٩) صحيح البخارى ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

يوم، فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم، أطل رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم، فأبصر رسول الله ﷺ ومن معه من بعيد، فنادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا حَظُّكُم الذى تنتظرون، فأسرع إلى رسول الله ﷺ أشراف بنى النجار فى المدينة، وهم أخوال جده عبدالمطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم معلقيها على أكتافهم، استعدادًا للدفاع ورمزًا للنجدة، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وأردف أبا بكر خلفه عليها، وملأُ بنى النجار ووجهاؤهم حوله يحيطون بركبه تكريمًا وتشريفًا.

وسار الركب حتى دخل المدينة، وكلٌّ يريد أن يتشرف بنزول رسول الله فى داره أو بجوارها، يحاولون وقف الناقة، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة» حتى وصلوا إلى بيت أبى أيوب، وفى فناء البيت بركت الناقة(٧٠)، فأخذ جَبَّار بن صخر ينخسها برجله لتقوم: يبغى أن تصل إلى داره، ورآه أبو أيوب، فقال: يا جبار! أعن منزلى تنخسها؟ أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتُك بالسيف.

بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ

المسجد النبوى الشريف، هو المسجد الثانى الذى بُنى فى المدينة بعد مسجد قباء؛ وكلاهما يصدق فيه قول الحق جل فى علاه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

والمسجد النبوىُّ كذلك، هو المسجد الثانى فى الفضل والمنزلةِ وكثرة الثواب للمصلين فيه والقاصدين له، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى

---

(٧٠) دار أبى أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه هى التى بناها تُبَّعٌ، وتوارثها أبناء الحبر الذى أسدى النصيحة لِتُبَّعٍ حتى ملكها أبو أيوب وهو من نسل ذلك الحبْر، والله أعلم. راجع: القصة فى الجزء الأول تحت عنوان: «خَبَرُ تُبَّعٍ وإسْلامِه».

ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»(٧١).

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان قد اعتزم بناء مسجدٍ فى المكان الذى بركت فيه ناقته، وكان يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ: غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلامَيْنِ، فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالا: لا؛ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً، حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ:

«هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ»

وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ   فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ»

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ(٧٢).

ومعناهُ: أن رسول الله ﷺ قد اعتزم بناء المسجد، ووقع اختياره على أرضٍ لبنى النجار فيها نخل، وفيها قبور المشركين، وفيها آثار بناء محطم، وبها حُفَرٌ، وقال: «يا بنى النجار، ساومونى على هذه الأرض لأشتريها فأقيم عليها مسجدًا نصلى فيه» فقالوا: لا، والله لا نأخذ لها ثمنًا، إنما هى لله تعالى.

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بقطع النخل فقطعوه، وأمر بقبور المشركين فنُبشت، وجمع عظامها وترابها وغُيِّبَتْ فى باطن الأرض، وأمر بآثار الهدم والحجارة فسويت ومهدت الأرض واستوت ثم بنى المسجد، فصفوا النخل حائطًا جهة القبلة، جهة المسجد الأقصى ببيت المقدس

(٧١) صحيح البخارى: الباب الأول من كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ٣/٦٣، وصحيح مسلم: كتاب الحج/ باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ٢/١٠١٤، ومسند الإمام أحمد ٢/٢٧٨، ٥٠١.

(٧٢) صحيح البخاري ٧/٢٣٩، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

بطول مائة ذراع، وبنيت جدرانه باللَّبِنِ فوق أساس من الحجارة ارتفاعه ثلاثة أذرع، وجُعِل ارتفاع الجدار قامةً وبسطةً نحوًا من سبعة أذرع، بحيث لو رفع الرجل الطويل يده إلى أعلى أصابت السقف، وجعل طولَ كلِّ ضلعٍ مائة ذراع، فهو مربع الشكل، أى ما يقارب ١٦٠٠ مترًا مربعًا على تقدير طول الذراع ٤٠سم، ومنهم من اعتبر طول الذراع ٥٠سم فتقارب مساحة المسجد ٢٥٠٠ مترًا مربعًا.

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب فى مؤخرة المسجد من جهته الجنوبية، وباب الرحمة جهة الغرب، والباب الذى كان يدخل منه ﷺ من جهه الشرق، وهو الذي عُرِفَ بعدُ باسم باب جبريل، وجعل جانبى كل باب من الحجارة، وجعل عُمُدُ المسجد من جذوع النخل، وسقفه من الجريد، وكان النبى ﷺ ينقل معهم الحجارة واللبِن بنفسه حتى أغبر صدره الشريف وكان ينشد معهم: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّخَيْرُالآخِرَهْ فَانْصُرِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

وفى رواية: اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجَرَ أَجْرُ الآخِرَهْ فَارْحَمْ الأَنْصَارَوَالْمُهَاجِرَهْ

وكان يقول ﷺ وهو ينقل اللبِن معهم للبناء:

هَذَا الْحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرَ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وكلها فى الصحيح، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا – فى الأحاديث – أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعرٍ تام غير هذه الأبيات.

والمراد أنه ﷺ كان يحثهم على العمل ويشاركهم فيه، وأن نقل هذه الحجارة واللَّبِن لبناء المسجد أبر وأطهر عند الله عز وجل مما يُحمل من خيبر زبيبًا كان أو تمرًا.

وقال بعض المسلمين: لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذًا لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتنظفًا: يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فإذا حمل اللَّبِنة فى ثوبه نظَّف كمه إذا وضعها، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نَفَضَه، فلما رآه

عليُّ بن أبى طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنشأ يقول:

لاَ يَسْتَوِى مَنْ يَعْمُرُ المُسَاجِدَا   يَدْأَبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدًا
وَمَنْ يُرَى عَنِ التُّرَابِ حَائِدًا

فردد عمار بن ياسر تلك الكلمات دون أن يدرى مَنِ المراد بها، فلما مر بعثمان بن مظعون غضب منه ظانًا أنه يُعرِّضُ به، فأغلظ له القول، وسمعه النبى ﷺ فغضب من أجل عمار، فقال الصحابة لعمار: إن النبى ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أُرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله! ما لى ولأصحابِك؟ فقال ﷺ: «مالك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلى! يحمل كلُّ واحدٍ منهم لبنةً لبنة، ويحملون علىَّ اللبنتين والثلاث، فأخذ بيده رسولُ الله ﷺ وطاف به فى المسجد يمسح مؤخرة رأسه من التراب وهو يقول: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ليس هؤلاء بالذين يقتلونك؛ وإنما تقتلك الفئة الباغية(٧٣).

وهكذا: ظل الصحابة ينقلون اللبِن والحجارة حتى تم بناء المسجد النبوى بالمدينة، فأخذ يؤدى رسالته فى المجتمع، لأنه دائمًا مهبط النور ومصدره فى هذه الحياة، والحمد لله رب العالمين(٧٤).

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيحانى أحداث هذه الحقبة فى أرجوزته بقوله:

وَطَلْحَةُ التَّيْمِيُّ وَابنُ العَوَّامْ   ۞۞   قَد أَقبَلاَ فِي مَتْجَرٍ مِنَ الشَّامْ
فَكَسَيَا مِنَ الثِّيَابِ المُصْطَفَى   ۞۞   وَالصَّاحِبُ الصِّدِّيقُ صَاحِبُ الوَفَا
وَكَانَتِ الأَنصَارُ فِي انتِظَارِهِم   ۞۞   يُهَيِّئُونَ نُزُولاً فِي دَارِهِمْ
وَفِي بَنِي عَمرِو بنِ عَوفٍ بِقُبَا   ۞۞   حَطَّ النَّبِيُّ رَحْلَهُ فَمَرْحَبَا

---

(٧٣) مسند الإمام أحمد ٣/٢٢ ح١١٠١١ حيث توسع الشيخ شعيب الأرنؤوط فى تخريجه، ومجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب فضل عمار بن ياسر ووفاته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ٩/٢٩٦، وقال الهيثمى: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. وقد كتبنا فى الهجرة العامة عنوانًا: «التأدب والاعتدال فيما وقع بين الصحابة من التهاجر والاقتتال» ج٢.

(٧٤) راجع كتاب: «المسجد النبوى عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص١٨ : ٢٦.

وَأَسَّسَ الـمَسجِدَ ثُمَّ ارْتَحَلَا ❁❁ إِلَى أَبِي أَيـوبَ حَيْـثُ نَـزَلَا
وَثَمَّ كَانَ قَبْرُهُ وَمَسْجِدُه ❁❁ وَهْوَ الَّذِي نَزُورُهُ وَنَقصِدُه
وَاشتَرَكَ النَّبِيُّ فِي بِنَائِهِ ❁❁ بِنَفْسِهِ وَاشتَدَّ فِي ثَنَائِهِ
عَلَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار ❁❁ وَضَحِكَ النَّبِيُّ مِن عَمَّار

تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِي مَدِينَتِهِ

وبعد هجرة النبى ﷺ وأصحابه: خلت مكة من المسلمين أو كادت، وأغلقت بعض الدور نتيجة لذلك، منها دار بنى جحش... وكل ذلك حدث أو معظمه فى فترةٍ قصيرةٍ بين موسم الحج وشهر ربيع الأول... الأمر الذى أيقظ قريشًا من غفلتها.. ولعلها لم تهتم للأمر أولاً، ثم فكرت فوجدت فيه الخطر عليها حسب زعمها.

وبعد أن استقر النبى ﷺ فى المدينة بأيام قلائل: وصل إليها علىُّ بنُ أبى طالب مهاجرًا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها فى مكة.

قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحدٌ، إلا مفتونٌ أو محبوس...[٧٥].

ومن جملة هؤلاء: صهيب الذى اضطر إلى التنازل عن ماله لقريشٍ التى زعمت أنه لم يكن ذا مالٍ قبل قدومه مكة، وذلك فى مقابل أن يَسمحوا له بالهجرة..[٧٦].

(٧٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٩.

(٧٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٧٧.

ومن منا معشر المسلمين لا يعرف صهيبًا الرومى، ولا يُلِم بطرفٍ من أخباره وقطوفٍ من سيرته؟!

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون منا هو أن صهيبًا لم يكن روميًا، وإنما كان عربيًا خالصًا، نُميرىَّ الأبِ تميمىَّ الأم.

ولانتساب صهيبٍ إلى الروم قصةٌ ما تزال تعيها ذاكرة التاريخ، وترويها أسفاره.

فقبل البعثة بحوالى عقدين من الزمان كان يتولى الأُبُلَّةَ – وهى مدينة قديمة دخلت فى البصرة وأصبحت جزءًا منها – سنان بن مالك النُمَيْرِىّ، من قِبَلِ كسرى ملك الفرس.

وكان أحب أولاده إليه طفلٌ لم يجاوز الخامسة من عمره، سماه صهيبًا.

وكان صهيب: أزهرَ الوجهِ، أحمرَ الشعرِ، متدفقَ النشاطِ، ذا عينين تتقِدَانِ فطنةً ونجابةً، وكان إلى ذلك مِمْراحًا، عذب الرُّوح، يدخل السرور على قلب أبيه، وينتزع منه هموم المُلْكِ انتزاعًا.

مضت أم صهيب مع ابنها الصغير وطائفةٍ من حشمها وخدمها إلى قرية «الثَّنِىِّ» من أرض العراق طلبًا للراحة والاستجمام، فأغارت على القرية سرية من سرايا جيش الروم، فقتلت حراسها، ونهبت أموالها، وأسرت ذراريها فكان فى جملة من أسرتهم صهيب.

بِيعَ صهيب فى أسواق الرقيق ببلاد الروم، وجعلت تتداوله الأيدى فينتقل من خدمة سيدٍ إلى خدمة آخر، شأنه فى ذلك كشأن الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين كانوا يملأون قصور بلاد الروم.

وقد أتاح ذلك لصهيب أن ينفذ إلى أعماق المجتمع الرومى، وأن يقف عليه من داخله، فرأى بعينيه ما يعشش فى قصوره من الرذائل والموبقات، وسمع بأذنيه ما يرتكب فيها من المظالم

والمآثم، فكره ذلك المجتمع وازدراه، وكان يقول فى نفسه: إن مجتمعًا كهذا لا يُطَهِّرُه إلا الطوفان.

وعلى الرغم من أن صهيبًا قد نشأ فى بلاد الروم، وشب على أرضها وبين أهلها، وعلى الرغم من أنه نسى العربية أو كاد ينساها، فإنه لم يغب عن باله قط أنه عربىٌّ من أبناء الصحراء، ولم تَفْتُرْ أشواقُه لحظةً إلى اليوم الذى يتحرر فيه من عبوديته، ويلحق ببنى قومه، وقد زاده حنينًا إلى بلاد العرب فوق حنينه، أنه سمع كاهنًا من كهنة النصارى يقول لسيدٍ من أسياده: لقد أطل زمانٌ يخرج فيه من مكة فى جزيرة العرب نبىٌّ يُصدق رسالة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ثم أُتِيحت الفرصة لصهيبٍ فولى هاربًا من رق أسياده، ويَمَّمَ وجهه شطرَ مكةَ أمِّ القرى موئِل العرب، ومبعث النبى المرتقب، ولما ألقى عصاه فيها، واستقر بها أطلق الناس عليه اسم صهيب الرومى لِلُكْنَة لسانه وحُمْرة شعره، وقد حالف صهيبٌ سيدًا من سادات مكة هو عبدالله بن جُدْعَان وطفق يعمل فى التجارة، فدرَّت عليه الخيرَ الوفير والمال الكثير.

وفى ذاتِ يومٍ عاد صهيب إلى مكة من إحدى رِحْلَاتِه، فقيل له إن محمد بن عبدالله قد بُعث وقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله وحده، ويحضهم على العدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، فقال: أليس هو الذى يلقبونه الأمين؟! فقيل له: بلى، فقال: وأين مكانه؟ فقيل: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، ولكن حَذَارِ من أن يراك أحدٌ من قريش، فإن رَأَوْك فعلوا بك وفعلوا وأنت رجل غريب لا عصبية لك تحميك، ولا عشيرة عندك تنصرك.

مضى صهيب إلى دار الأرقم حذرًا يتلفت، فلما بلغها وجد قرب الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تريد يا عمار؟ فقال عمار: بل ما تريد أنت؟ فقال صهيب: أردتُ أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول، فقال عمار: وأنا أريد أيضًا، فقال صهيب: إذن ندخل معًا على بركة الله، دخل صهيب بن سنان الرومى وعمار بن ياسر على رسول

الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان فى صدريهما، وتسابقا فى مد يديهما إليه، وشهدا ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومِهما عنده ينهلان من هديه وينعمان بصحبته ﷺ.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جنح الظلام وقد حمل كل منهما من النور فى صدره ما يكفى لإضاءة الدنيا بأسرها.

تحمل صهيب نصيبه من أذى قريش مع بلال وعمار وسمية وخباب وغيرهم من عشرات المؤمنين، وقاسى من نكال قريش ما لو نزل بجبلٍ لهده، فتلقى ذلك كله بنفس مطمئنة صابرة، لأنه كان يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ولما أَذِنَ الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب على أن يمضى فى صحبة الرسول ﷺ وأبى بكر، لكن قريشًا شعرت بعزمه على الهجرة فصدته عن غايته، وأقامت عليه الرُّقَباء حتى لا يفلت من أيديهم، ويحمل معه ما دَرَّتهُ عليه التجارة من ذهبٍ وفضة.

ظل صهيب بعد هجرة الرسول ﷺ وصاحبه يتحين الفرص لِلَّحاق بهما فلم يُفلح، إذ كانت أعين الرقباء ساهرةً عليه متيقظةً له، فلم يجد سبيلاً غير اللجوء إلى الحيلة.

وفى ذات ليلة باردة: أكثر صهيب من الخروج إلى الخلاء كأنه يقضى الحاجة، فكان لا يرجع من قضاء حاجته حتى يعود إليها، فقال بعض رقبائه لبعض: طِيبوا نفسًا؛ فإن اللات والعزى شغلاه ببطنه، ثم أووا إلى مضاجعهم وأسلموا عيونهم إلى الكرى وراحوا فى نومٍ عميق، فتسلل صهيب من بينهم، ويمم وجهه شطر المدينة، وسار نحو عشرين كيلو مترًا، ثم فطن له رقباؤه، فهبوا من نومهم مذعورين، وامتطوْا خيولهم السوابق، وأطلقوا أعنتها خلفه حتى أدركوه، فلما أحس بهم، وقف على مكان عالٍ وأخرج سهامه من كنانته ووتر قوسِه، وقال: يا معشر قريش! لقد علمتم – والله – أنى من أرمى الناس وأحكمهم إصابة، ووالله! لا تصلون إِلَيَّ حتى أقتل

بكل سهمٍ معى رجلاً منكم، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى شىءٌ منه، فقال قائل منهم: والله لا ندعك تفوز منا بنفسك وبمالك، لقد أتيت مكة صعلوكًا فقيرًا فاغتنيت وبلغت ما بلغت، فقال: أرأيتم إن تركت لكم مالى، أَتُخَلُّونَ سبيلى؟ قالوا: نعم، فدلهم على موضع ماله فى بيته فى مكة، روى الحاكم عَنْ عِكْرِمَةَ -مرسلاً- قَالَ: لَمَّا خَرَجَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَثَلَ كِنَانَتَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا، فَقَالَ: لاَ تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدُ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَهُمَا لَكُمْ. ونحوه عن أنس مرفوعًا.

فصدَّقوه ليقينهم أن أصحاب محمد لا يكذبون، وعادوا وأخذوا المال فوجدوه كما وصف لهم، وأخذ صهيب يسرع السير نحو المدينة فارًا بدينه إلى الله، غير آسفٍ على المال الذى أَنفَقَ فى جَنْبِهِ زهرة العمر، وكان كلما أدركه النصب وأصابه التعب، حدا به الشوق إلى رسول الله ﷺ فيعود إليه نشاطه، ويواصل سيره.

فلما بلغ قباء رآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقبلاً، فهش له وبش وقال: ربح البيع أبا يحيى، وها هو يُحدِّثُ عن هجرته حتى لقى رسول الله ﷺ فى قباء، فيقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فَصَدَّنِي فتيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقُومُ وَلاَ أَقْعُدُ، فَقَالُوا: قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بِبَطْنِهِ وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا، فَقَامُوا فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيَرُدُّونِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَتُخَلُّونَ سَبِيلِي، وَتَفُونَ لِي فَتَبِعْتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقُلْتُ لَهُمُ: احْفِرُوا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الأَوَاقِ، وَاذْهَبُوا إِلَى فُلاَنَةَ فَخُذُوا الْحُلَّتَيْنِ، وَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ

يَتَحَوَّلَ مِنْهَا -يَعْنِي قُبَاءَ-، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «يَا أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ» ثَلاثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاسَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ، وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٧٧).

فَعَلَت الفرحة وجه صهيب وقال: والله ما سبقنى إليك أحد يا رسول الله، وما أخبرك به إلا جبريل.

حقًا لقد ربح البيع، وصدَّق ذلك وحى السماء، وشهد عليه جبريل، حيث نزل فى صهيب قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة].

فطوبى لصهيبِ بن سِنَان الرومى، وحُسنُ مآب(٧٨).

(٧٧) راجع: المستدرك على الصحيحين ٣/٣٩٨ فى مرسل عكرمة وقال الحاكم بعده: وَحَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ - نَحْوَهُ -، وَنَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ» قَالَ: وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ. صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، و٣/٤٠٠ حديث صهيب وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقرَّه الذهبى، وفى سنده: يَعقُوب بْن مُحَمد بْن عِيسَى الزهرى، وهو ممن يصلح للمتابعة، قال فيه الذهبى فى الميزان ٤/٤٥٤: مشهور مُكثر، وقال ابن حجر فى هدى السارى ص٤٥٩: ضعفه الجمهور، وقال الحاكم وحده: ثقة مأمون، علق له البخاري موضعا واحدا في حد جزيرة العرب، وقال ابن معين: صدوق؛ ولكن لا يبالي عمن حدث، وقال مرة: أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي، عن حُصَيْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ صُهَيْبٍ: ذكره ابن حبان فى الثقات ٨/٢٠٨، ولم يذكر البخارى فيه جرحًا. التاريخ الكبير ٣/١٠، وقال أبو حاتم: مجهول. الجرح والتعديل ٣/١٩١، ومن عمومة حصين بن حذيفة بن صيفى: زياد بن صيفي، ويقال يزيد بن صيفي: ذكره ابن حبان فى الثقات وروى له ابن ماجة، قال ابن حجر: صدوق، وذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحا. تهذيب التهذيب ٣/٣٧٤، والتقريب ص٢٢٠، و«أُسْكُفَّةِ الْبَابِ»: خشبتة الطويلة المغروسة فى الأرض ليتحرك بها الباب.

(٧٨) للاستزادة من أخبار صهيب الرومى، انظر: الإصابة ٣/٣٦٤: ٣٦٦، وطبقات ابن سعد ٣/٢٢٦، وأسد الغابة ٣/٣٠، والاستيعاب «على هامش الإصابة» ٢/١٧٤، وصفة الصفوة ١/١٦٩، والبداية والنهاية ٧/٣١٨، ٣١٩، وصور من حياة الصحابة ص١٩٥ :٢٠٢.

وكان ﷺ يدعو للمستضعفين أن يفرج الله عنهم وييسر لهم الهجرة، ففى الصحيحين: عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قبل أن يسجد قال: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَام، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ...»(٧٩).

وبهذا أصبحت الهجرة فى مجال الفرض والواجب، فكان كل من أسلم يجب عليه أن يبذل جهده قدر استطاعته فى الهجرة، فإن لم يستطع كان ممن عذرهم الله تعالى.

الْمُؤَاخَاةُ فِى عَهْدِ النُّبُوَّةِ

اعتبر الإسلام المؤمنين كلَّهم إخوةٌ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم والتناصر فى الحق بينهم، وقد اختلف العلماء فى ثبوت المؤاخاة فى العهد المكى قبل الهجرة، فذكر البلاذرى إلى أن النبى ﷺ آخى بين المسلمين فى مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبى بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشى، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيدالله، وبينه ﷺ وبين على بن أبى طالب(٨٠).

---

(٧٩) الحديث متفق عليه، واللفظ المذكور فى صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب القنوت ٢/٢٨٤، وفى باب: يهوِى بالتكبير حين يسجد ٢/٢٩٠، وفى مواطن أخرى من الصحيح، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت فى جميع الصلوات ٥/١٧٦: ١٧٨ شرح النووى.

(٨٠) أنساب الأشراف للبلاذرى ١/٢٧٠، ٢٧١ تحقيق د/محمد حميد الله، ط دار المعارف بمصر المجلد الأول، وينظر:

ويعتبر البلاذُرى أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية وقد تابعه فى ذلك ابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣هـ دون أن يصرح بالنقل عنه(٨١)، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن واحد منهما(٨٢)، وقد أخرج الحاكم فى المستدرك من طريق جميع بن عمير، عن ابن عمر: «آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبدالرحمن بن عوف وعثمان».

وأخرج الحاكم وابن عبدالبر بسندٍ حسنٍ، عن أبى الشعثاء، عن ابن عباس: «آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود»(٨٣).

ومال كلٌّ من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: وقد قيل إنه ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليًّا أخًا لنفسه، والثَّبتُ الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار.

وقد سبقه شيخه ابن تيمية فنفى وقوع المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصًا مؤاخاة النبى ﷺ لعلى، لأن المؤاخاة شُرِعَت لإرفاق بعضهم بعضا، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحدٍ منهم ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى.

وتعقبه الحافظ ابن حجر بقوله: وهذا ردٌّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فآخى ﷺ بين الأعلى والأدنى

السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٤٠: ٢٥٥، وكتابه الآخر: «المجتمع المدنى فى عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى» ط الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

(٨١) الدرر فى اختصار المغازى والسير ص١٠٠.

(٨٢) عيون الأثر ١/ ١٩٩.

(٨٣) فتح البارى: ٧/ ٢٧١.

ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلى لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة... وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة. لأن زيدًا مولاهم فقد ثبتت أخوتهم وهما من المهاجرين(٨٤).

وأما ابن كثير فقد ذكر أن من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلة نفسها التى ذكرها ابن القيم(٨٥).

ومما يرجح ما ذهب إليه ابن القيم وابن كثير أن كتب السيرة الأولى المختصة: لم تشر إلى وقوع المؤاخاة بمكة، كما أن البلاذُرى وهو المصدر الوحيد القديم الذى أشار إليها، قد ساق الخبر بلفظ (قالوا) دون إسناد مما يضعف الرواية، وعلى فرض صحة وقوع هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن يترتب عليها حقوق التوارث.

وأما وقوع المؤاخاة فى المدينة: فقد أجمع عليها العلماء؛ وذلك دفعًا للمشكلات المتعددة التى واجهها المهاجرون فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والصحية، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، كما أن مهاراتِهم كانت فى التجارة التى تمرست بها قريش، ولم تكن لهم خبرةٌ فى الزراعة والصناعة، وهما يشكلان أساسين مهمين فى اقتصاديات المدينة، وبما أن التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم فى المجتمع المدنى بسهولة، وكانت مشكلة معيشتهم وسُكناهُم تواجه الدولة الناشئة، كما أن علائق المهاجرين بالمجتمع الجديد كانت حديثة، فقد ترك المهاجرون أهليهم ومعارفَهم بمكة، وانبتَّت صلتهم بهم، وانقطعت بالكلية: مما ولَّدَ إحساسًا بالوحشة والحنين إلى بلدتهم مكة، بالإضافة إلى اختلاف مُناخ المدينة عن مكة،

---

(٨٤) زاد المعاد ٧٩/٢، ومنهاج السنة النبوية ٩٦،٩٧/٤، للإمام ابن تيمية، وفتح البارى٢٧١/٧.

(٨٥)السيرة النبوية لابن كثير ٣٢٤/٢.

وإصابة المهاجرين بالحمى... ومن ثَمَّ: أقسم -سبحانه- على أن يرزق المهاجرين فى سبيله رزقًا حسنًا سواء قُتِلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فُرُشِهم فى غير جهاد؛ فقال جل فى علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج].

وبالرغم من الأخوة التى كانت بين المسلمين فى مكة، وبذْلِ الأنصار وكرمِهم فى المدينة؛ فإن الحاجةَ ظلت قائمةً إلى تشريعٍ يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة، ويدفع عنهم أى شعور بأنهم عالةٌ على الأنصار، فكان تشريع المؤاخاة؛ الذى حفظ للمهاجرين عزتهم وكرامتهم.

وقد أجمع المؤرخون وكُتَّابُ السيَرِ على أن المؤاخاة قد وقعت فى العام الأول من الهجرة أثناء بناء المسجد أو بعده بقليل، وكان إعلان هذا التشريع فى دار أنس بن مالك وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجرى وأنصارى اثنين اثنين.

وشملت خمسةً وأربعين رجلاً من المهاجرين، وخمسةً وأربعين رجلاً من الأنصار، وذكر ابن سعد أنهم كانوا مائةً؛ خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، وأن هناك مؤاخاةً وقعت بين المهاجرين أنفسِهم فى المدينة، ولم يعقب على ذلك أحدٌ، وذكر البلاذرى مؤاخاة حمزة بن عبدالمطلب لكلثوم بن الهدم أو غيره، كما ذكر مؤاخاة زيد بن حارثة لأسيد بن حضير، ومؤاخاة علىّ لسهل بن حنيف، ويقال: إنه لم يبق من المهاجرين أحدٌ إلا آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أنصارى، وكان عدد من اشترك من المهاجرين فى بدر ثلاثةً وثمانين رجلاً، ولربما كان عددهم مع عوائلهم إذ ذاك: لا يتجاوز أربعمائة نفر، ثم إن استمرار الهجرةِ، وتدفق المهاجرين إلى المدينة: ترتب عليه بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، فكان العلاجُ الأمثلُ لها هو: تشريع المؤاخاة، والله أعلم(٨٦).

---

(٨٦) ينظر: أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢/٩ ط التحرير، وفيها: حدد المؤاخاةَ بأنها

وقد ترتب على المؤاخاةِ حقوقٌ خاصَّةٌ بين المتآخِيَن كالمواساة المطلقة فى كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواءٌ كان عونًا ماديًا كالمعونة والرعاية، أو معنويًا كالنصيحةِ والتزاور؛ بل: ارتقت إلى ما هو أعلى وأعمق من أخوة النسب والدم؛ فيتوارث المتآخون دون ذوى أرحامهم(٨٧).

العِفَّةُ والإِيثَارُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار

وقد بلغ كرم الأنصار حدًا عاليًا عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين، لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين فى التمر(٨٨).

سواءٌ أكانت الشركةُ فى التمرِ محددةً بنسبةٍ معينةٍ؛ كالمناصفة، أم كانت إعانةً من الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإعالةً لهم فى تلك الفترة، والظاهر: أن رسول الله ﷺ لم يُرِد أن يشغل المهاجرين بالزراعة لقلة خبرتهم فى هذا المجال، وذلك حتى لا يؤدى إلى خفض الإنتاج وضعف الاقتصاد، كما أنه ﷺ يحتاج المهاجرين فى مهام الدعوة والجهاد فى تأسيس الدولة الفَتِيَّةِ(٨٩).

كانت بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى، والدرر فى اختصار المغازى والسير ص٩٦ وحدد فيها ابن عبدالبر تاريخ تشريع المؤاخاة بعد الهجرة بخمسة أشهر، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠، وكتاب: «الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق» للأستاذ: محمد عبدالله السمان، نشر: مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(٨٧) البخارى: ح٢٢٩٢، ومسلم: ح٢٥٢٨، والطبقات الكبرى ١/ ٢/ ٩، وأنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، والدرر ص٩٦، وزاد المعاد ٢/ ٧٩، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠.

(٨٨) صحيح البخارى ٥/ ٨ ح٢٣٥٢.

(٨٩) ينظر: فتح البارى ٥/ ٥٢٤.

كما وهبت الأنصارُ لرسول الله ﷺ كل فضل فى حظها، وقالوا له: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيرًا، وابتنى لأصحابه فى أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكًا لأحد، وهكذا: لم يبخل الأنصار بشىء من العون؛ بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد فى كتاب الله العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩](٩٠).

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة فى نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بالثناء على الأنصار والدعاءِ لهم لما بذلوه من جود وكرم، فعن أنس قال: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلا أَحْسَنَ بَذْلاً فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُئُونَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، قَالَ ﷺ: «لا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَهُمْ»(٩١).

ومن النماذج الفريدة لهذا الإيثار الذى يُصَوِّر عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة وتفانيهم فى تنفيذه، ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد (واللفظ له)، من حديث أنس بن مالك: أَنَّ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَيْ أَخِي! أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالاً؛ فَانْظُرْ شَطْرَ مَالِي فَخُذْهُ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ؛ فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا، فَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ، فَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ،

---

(٩٠) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠.

(٩١) جامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٤٤، ج٤ ص٥٦٣ ح٢٤٨٧ وقال أبو عيسى: حديثٌ صحيح حسن غريب، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٠٠، ٢٠٤، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٠٠، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٣٢٨.

فَجَاءَ وَعَلَيْهِ رَدْعُ – أى: أثر – زَعْفرَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْيَمْ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَصْدَقْتَهَا؟» قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ» قَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَلَوْ رَفَعْتُ حَجَرًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً(٩٢).

وهكذا: طابت نفوس الأنصار بما بذلوه لإخوانهم المهاجرين من عون؛ فاستحقوا مدح اللهِ لهم وثناءه عليهم فى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وقد قابل المهاجرون هذا الإيثار بالعفة والكدح، فى طلب العيش وتحصيل الرزق، فلم يكن مسلك عبدالرحمن بن عوف متفردًا؛ بل إن كثيرين من المهاجرين كان مُكْثُهُم يسيرًا فى بيوت إخوانهم من الأنصار، ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتًا لأنفسهم وتكفلوا بنفقات أهليهم وذويهم.

ومما لا شك فيه: أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل الذى لا نشهد له مثيلاً فى تواريخ الأمم الأخرى.

وليس موقف ابن عوف فى أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه: بأقل روعة من إيثار سعد بن الربيع، فقد تمكن عبدالرحمن – وهو التاجر الماهر– من شق طريقه فى الحياة الجديدة، وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج، ودفع المهر نواة من ذهب(٩٣).

---

(٩٢) حديث أنس فى: صحيح البخارى فى أحد عشر موضعًا، أولها برقم ٢٠٤٩، وصحيح مسلم ح١٤٢٧، وجامع الترمذى ح١٠٩٤، وسنن ابن ماجه ح١٩٠٧، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٧١ ح١٣٨٦٣ (واللفظ له)، ونحوه عند البخارى ح٢٠٤٨ عن عبدالرحمن بن عوف.

ثم بارك الله له فى سعيه؛ فَنَمَتْ ثروتُهُ، وصار من كبارِ أغنياء المسلمين؛ حيثُ أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التى تعطى ولا تأخذ.

إن كرم الأنصار وسخاءهم الكبير، قابله عفةٌ وكرمُ نفسٍ من المهاجرين قلما نجد له نظيرًا، فهم لم يتركوا أموالهم فى مكة على أمل تعويضها من أموال إخوانِهم الأنصار، وإنما تركوها فى سبيل عقيدتهم، وإذا ألجأتهم الحاجة فى هذه الفترة فقد كانوا يقتصرون على ما يقيم أَوَدَهُم.

وقد سبق أن عمر بن الخطاب خرج بأمواله أيضًا، وذلك فى قصة هجرته مع عياش بن أبى ربيعة، حيث قال لعياش – حين جاءه أبو جهلٍ يقنعه بالعودة إلى مكة رحمةً بأمه-: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالى ولا تذهب، وهذا يعنى: أن عمر قد خرج بماله، وإلا فكيف يَعِدُ عياشًا بنصف ماله إن لم يكن قد خرج به؟ وعمر كان تاجرًا، وقد مارس تجارته بعد وصوله إلى المدينة، وكذلك أبو بكرٍ قد حمل معه عند هجرته ثروته التى كانت تقدر بنحو ستة آلاف درهم، وكان تاجرًا أيضاً(٩٤).

وكذلك حمل عثمان جميع أمواله معه، وأن عثمان بن مظعون قد خرج بماله، فقد أخرج ابن سعد: أنَّ امرأة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبى ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: مالك؟ فما فى قريش أغنى من بعلك، فقالت: ما لنا منه شيء! أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه فقال: «يا عثمانُ بنَ مظعونٍ! أما لك بي أسوة؟» فقال: يا رسول الله! بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: «تصوم النهار وتقوم الليل؟» قال: إني لأفعل، قال: «لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسدك حقًا، وإن لأهلك حقًا، فصلي ونم، وصم

---

(٩٣) البخارى ح٥١٤٨، ٥١٥٥، فتح البارى ٢٠٤/٩، ٢٢١.

(٩٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٥/١ وراجع ما تقدم، تحت عنوان: «تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» وعنوان: «ليلة الهجرة».

وأفطر» فأتتهن بعد ذلك عَطِرةً كأنها عروس، فقلن لها: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

وهذا يعنى: أن عثمان بن مظعون، قد خرج بأمواله؛ لأن الفترة التى عاشها فى المدينة كانت قليلة، لا يتمكن فيها من كسب الأموال التى تجعله من الأغنياء؛ حيث توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة(٩٥).

ولا شك أن غيرهم أيضًا من المهاجرين قد استطاع أن يحمل ماله أو بعض ماله فتكفَّل بنفقات نفسه وعياله دون أن يكلف أحدًا من الأنصار شيئًا؛ بل ربما ساهم فى نفقات بعض إخوانه من المهاجرين والفقراء كأهل الصُّفَّةِ؛ لأن العقيدة الإسلامية قد منعت ظهور الصراع الطبقى بين أفراد المجتمع الإسلامى، بالمؤاخاة بين الأغنياء والفقراء، وتوحيد الصف الداخلى لمواجهة متطلبات الجهاد، فكانوا جميعًا فى صفٍّ واحدٍ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة](٩٦).

ولما أَلِفَ المهاجرون جوَ المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم... رجع التوارث إلى وضعه الطبيعى المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس الفروض المذكورة في كتاب الله تعالى للأصول والفروع والحواشي والزوجية والوصية بذوي الأرحام؛ فأُبْطِلَ التوارث بين المتآخين؛ لأنه كان قد شُرِعَ لمعالجة ظروف استثنائية كانت تمر بها الدولة الناشئة، وذكر ابن سعد أن ذلك الإلغاء كان بعد غزوة بدر، بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ

(٩٥) فتح البارى ٤١١/١٢، وسنده عند ابن سعد صحيحٌ؛ لكنه مرسل، وللحديث شواهد مشهورة صحيحة.

(٩٦) الطبقات الكبرى ٢٥٥/١، تفسير الطبرى ٢٩١/٥ تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

ﵟٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍﵞ [الأنفال: ٧٥](٩٧).

فهذه الآية نسخت التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي كان ثابتًا بموجب المؤاخاة في عهد النبوة أول الهجرة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﵟوَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَﵞ [النساء: ٣٣]، قَالَ: «وَرَثَةً»: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ -قراءة العشرة سوى الكوفيين- قَالَ: «كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ، يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﵟوَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَﵞ [النساء: ٣٣] نَسَخَتْ»، ثُمَّ قَالَ: ﵟوَٱلَّذِينَ عَاقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡﵞ «إِلَّا النَّصْرَ، وَالرِّفَادَةَ، وَالنَّصِيحَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ»(٩٨).

فيرى ابن عباس أن آية: ﵟوَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡﵞ [النساء: ٣٣]، نسخت التوارثَ بالمؤاخاة، فالموالى فى رأيه هم الورثة بالرحم: ﵟوَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡﵞ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة، وذكر ابن عباس أن ما أُلْغِيَ من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصرة والرفادة والنصيحة: فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخِيَين.

---

(٩٧) وانظر تفسير الآية، فى: فتح القدير للشوكانى ٢/ ٣٣٠، ٣٣١، وما ورد فى سبب نزولها عند الطيالسى فى مسنده: منحة المعبود ٢/ ١٩ ح١٩٥٢، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٨/٧، ويراجع: الطبقات الكبرى ١ /٢/ ٩، وأنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، ٢٧١، وزاد المعاد ٢/ ٧٩، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص٢٦٠.

(٩٨) صحيح البخارى: كتاب الكفالة/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﵟوَٱلَّذِينَ عَاقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡﵞ ٣/ ٩٥ ح٢٢٩٢ واللفظ له، وفي كتاب التفسير/ بَابُ قَوْلِهِ: ﵟوَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡﵞ ٦/ ٤٤ ح٤٥٨٠، وفي كتاب الفرائض/ بَابُ ذَوِي الأَرْحَامِ ٨/ ١٥٣ ح٦٧٤٧.

وصفوة القول: أن المؤاخاة التى شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبُوسعُ المؤمنين فى كل عصر أن يتآخَوْا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين.

الإسلامُ وتربيتُهُ لأمثلِ مُجتمعٍ وإقامتُهُ لأكملِ دولةٍ فى التعامُلِ مَع الغيرِ

إن الذي أمر نبيه ﷺ في مكة أن يقول للكافرين: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون] هو الذي أوحى إليه في المدينة أن يعقد عهدا مع اليهود وكتب فيه: «لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم» لأنه سبحانه يعلمُ بحكمته: أن الإكراه على الدخول فى الإسلام قد يثمر نفاقا؛ فيكون الجزاء كما قال جلَّ وعلا:﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾.

وقد ينتفع به صاحبه؛ فيكون جزاؤه الجنة فى الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ» ويكون فى الدنيا من خير الناس، كما قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قَالَ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كتابًا بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، وادعَ فيهِ يهودَ وعاهدهم وأَقَرَّهُم عَلَى دِينِهِم وَأَمْوَالِهِم وَشَرَطَ لَهُم وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ... لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم مَوَالِيهِم وَأَنْفُسُهُمْ إلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إلا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ[٩٩].

---

(٩٩) الحديث المرفوع: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ» فى صحيح البخارى ح٣٠١٠، وسنن أبى داود

وبهذه المعاهدة أصبحت المدينة المنورة دارَ إسلام، وصار مَن فيها من اليهود أهل ذمة وعهد؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فيحرم إيذاؤهم أو الاعتداء عليهم أو قتلهم... ونحو ذلك؛ إلا بحق ماداموا ملتزمين بالعهد مستمسكين بما فيه، وعلى كل مسلم أن يرعى لهم ذلك، ومن خالف: فقد استحق الوعيد الوارد فى قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا: لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ؛ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أخرجه البخارى(١٠٠).

فأمثال هؤلاء: لهم حق الأخوة في المواطنة والأخوة في القوميات؛ لأنهم جميعا يعيشون في وطن واحد تحت حكم الإسلام وإن لم يؤمنوا به؛ وقد ذكر ذلك ربنا في كلامه عن كثيرين من أنبيائه ورسله مع أقوامهم، كنوح وهود وصالح ولوط، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

وشعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أُرسل إلى قومه في مدين؛ أطلق عليه أنه أخ لهم كذلك؛ كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف:٨٥] و[هود:٨٤] و[العنكبوت:٣٦].

ح٢٦٧٧ واللفظ له، والحديث الموقوف من كلام أبى هريرة: فى صحيح البخارى ح٤٥٥٧، له حكم الرفع؛ لأنه ليس للرأى مجال فيه، وكلام ابن إسحاق فى: السيرة النبوية لابن هشام ٥٠١/١: ٥٠٣، وعيون الأثر ٣١٨/١، ٣١٩، والبداية والنهاية ٢٢٤/٣، ٢٢٥، ومعنى: (يُوتِغ): يُهلِك.

(١٠٠) صحيح البخارى: كتاب الجزية والموادعة/ باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم ٢٦٩/٦، ٢٧٠، وكتاب الديات – واللفظ له–/ باب إثم من قتل ذميًا بغير جُرمٍ ٢٥٩/١٢، ٢٦٠، وسنن النسائى: كتاب القسامة/ باب تعظيم قتل المعاهد ٣٩٤/٨، وسنن ابن ماجه: كتاب الديات/ باب من قتل معاهدًا ٨٩٦/٢، ومسند الإمام أحمد ١٨٦/٢، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر تحت رقم ٦٧٤٥ وله فيه تحقيق نفيس. المسند ٢٨/١١، ٢٩، وللحديث شواهد عن أبى هريرة وأبى بكرة، وهذا أصحها.

وحينما أُرسل إلى أصحاب الأيكة: لم يوصف بهذا الوصف لأنه ليس من بلدهم؛ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء].

فلفظ الأخ مذكرًا ومؤنثًا ومفردًا ومثنًا ومجموعًا: الأصل فيه هو الأخوة في النسب أو الرضاعة، ثم توسع فية وأطلق على كل من تجمع بينهم صفة أو أكثر كالدين و الهدف والمصير... ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧].

والمنافقون الذين يعلنون الإسلام ويخفون الكفر؛ هم إخوان للكافرين المعادين للإسلام وأهله، كما قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ [الحشر:١١].

وكذلك الكافرون إخوان للمنافقين؛ لاجتماعهم علي الكيد للإسلام والتثبيط للمسلمين، قال تباركت أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهؤلاء وأولئك لن تثبت لهم الأخوة في الدين إلا باعتناقهم الإسلام والانقياد لتشريعاته، قال سبحانه: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التوبة].

والأخوة في الدين: هي الأخوة الحقة التي تعلو علي كل ماسواها من القوميات والأوطان... وغير ذلك؛ بل إنها ترتفع فوق النسب وإن كانت لا تنفيه.

قال فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى فيما هو مسجل عنه بالصوت والصورة: «يجب أن نستعيذ بالله من أن نصنع تصرفًا يرضى عنا اليهود أو النصارى؛ لأن معنى أنى أتصرف

تصرفا يرضى اليهود والنصارى: فإننى بحكم الله أكون قد تبعت ملتهم، لأنه قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠]، فنعوذ بالله أن نكون منهم محل الرضا.

ويجب أن تفرقوا بين الرضا وبين التعايش، فهناك فرق بين الرضا وبين التعايش، لأن التعايش يقتضيك أن تتحمل فعل قَالَب ولكن لا بحب قلب، والرضا: أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، ولذلك كان عهده ﷺ مع اليهود: لا رضا من اليهود عليه، ولا رضا منه على اليهود، وإنما كان تعايشا فقط، لأنه ما كان لرسول الله أن يفعل فعلا ترضى به اليهود، ولأنه إن رضيت اليهود عن واحد: فليعلم بأنه فارق ملة الله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠].

إذا: يجب أن نفرق بين الرضا وبين التعايش، فالرضا أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، وقد تقبل فعل القالب تعايشا لا حُبًّا، ولذلك يجب أن تتنبهوا إلى أننا قلنا سابقا: إن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فى شأن الولد مع والديه: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان:١٥]، فهذا هو التعايش مع الأبوين، فالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فإنك تصنعه مع من تحب، وإياكم أن تفهموا كما يقول بعض المستشرقين: إن فى بعض الآيات القرآنية تعارضًا، والذى يجعل المسلمين يغفلون عنه أنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة، ولولا هذه القداسة لأمكنهم أن يستقبلوا آيات من القرآن فيها تعارض، وجاء بهذه الآية: وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ثم جاء بالآية الأخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ [المجادلة:٢٢]، ثم يقول: ها هو ذا القرآن يقول ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ فنقول له: يا غبى! افهم أن الصحبة بالمعروف غير الود بالقلب، الصحبة بالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فتصنعه مع من تحب، فاصنع مع أبيك المعروف تعايشًا وقلبك غير راض.

إذا: فالرسول ﷺ حين عاهد اليهود أو عاهد غيرَهم: لم يكن عن رضًا قلبى، وإنما هو تعايش كما اقتضت الظروف، والإنسان المؤمن يستعيذ بالله أن يكون محل الرضا من هؤلاء أبدًا، فالحق سبحانه يقول كلامًا لا يُنقَض: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، فنعوذ بالله أن يرضوا عنا، وليس هناك مانع إذا أرادوا التعايش: فنتعايش، فافهموا بِدِقَّة».

وقال فى اجتماع مع كبار القساوسة فى مصر مجيبًا على قول أحدهم: الدين لله والوطن للجميع: «لا، بل كل وطن لا دين فيه؛ لا تعتز بوطنيتك له، لازم منهج، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مادمتُ مستضعفًا فى الأرض فلا تُسمَّى -الأرض- وطني ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ ابحث عن مكان آخر، أما الوطن الذى لا أستطيع أن أقيم فيه أمر لله: افعل ولا تفعل: فلا أعتز به» ثم سُئِل عن أثر زيارته لهم، فقال: «إن شاء الله ترونها فيما بعد؛ لأن الأثر لا يكون ساعة الحدث، وإنما يكون بعده». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضى عنه.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما قال: فما خرج النبى ﷺ وأصحابه مهاجرين من مكة إلا طلبًا لمكان آمن، وبحثًا عن أرض جديدة يتمكنون فيها من إقامة دين الله فى الأرض.

وهذا الفهم الجيد من هؤلاء الأئمة الكرام: ينبغي أن يوضع في سويداء قلب كل مسلم؛ لأنه قد يتزوج من الكتابية؛ فيصير أهلها أصهارًا له وأقارب لذريته، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

ولا ينبغى لمؤمن أن يُصغِيَ إلى مَن يُشكك فى فهم النصوص الشرعية قائلاً: كيف يُبيحُ للمسلم التزويج من الكتابية؛ ثم ينهاه عن حبها؟!

لأن إباحة تزويجه يكون عند الحاجة، وهى تُقدَّر بقدرها، ولا شك أن اختيار الزوجة المؤمنة هو خير من تلك الكتابية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

ثم إن الحُرَّة المؤمنة بلا ريب خير من الأَمَةِ المؤمنة التى يُباح التزوج بها فى حال الضرورة فقط، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء].

ولا ننسى حالة التعايش التى وضَّحها قريبًا فضيلة الشيخ الشعراوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليس فى هذا حَيفٌ ولا ظلم للزوجة كائنةً مَن كانت؛ لما ثبت عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: يَعْنِي الْقَلْبَ(١٠١).

فالجَوْرُ المنهى عنه يكون فى القِسمة أو العِشرة أو المطعم أو الكسوة، أما فى ميل القلب إلى إحدى الزوجتين أكثر من الأخرى فلا مؤاخذةَ فيه إن وقع، والله أعلم.

وهكذا: أحدثَ الإسلام بعقيدته وشريعته تغيُّرًا حقيقيًا فى حياة الفرد والمجتمع فى المدينة المنورة؛ لِمَا تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياةَ كلَّها بصبغته: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

(١٠١) سنن أبى داود: كِتَاب النِّكَاحِ/ بَابٌ فِي الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ ٢/٢٤٢ ح٢١٣٤، قال الخطابى: «المكروهُ مِن الميل هو ميلُ العِشْرة الذي يكون معه بخسُ الحق، دونَ ميلِ القلوب، فإن القلوب لا تُملَك». معالم السنن ٣/٢١٨، ٢١٩، والحديث بسند أبى داود أخرجه: الحاكم فى المستدرك ٢/٢٠٤ ح٢٧٦١ وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقره الذهبى، وهو كما قال الحاكم؛ لكن حماد بن سلمة خالف فيه مَن هو أوثق منه وأحفظ وهو حماد بن زيد وغيره الذين رووا الحديث إلى أبى قلابة مرسلاً، كما قال الترمذى بعد إخراجه الحديث رقم١١٤٠ فى جامعه: «حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَرَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ مُرْسَلاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ». كما أن نسبة عبدالله بن يزيد إلى الخطمى خطأ كذلك؛ لأنه لا تعرف له رواية عن عائشة، ولا يعرف أن أبا قلابة قد روى عنه، وأما الراوي عن عائشة، فإنما هو عبد الله بن يزيد رضيع عائشة، وهو الذي روى عنه أبو قلابة، وقد ذكر الحافظُ وشيخُه المزي هذا الحديث في ترجمته، والله أعلم.

خُلاصَةُ الهِجرَةِ النَّبويَّةِ

قَدِم المهاجرون إلى المدينة المنورة -التى كانت تسمى يثرب قبل الإسلام- وكانوا فى البدء من عشائر مختلفة من قريش: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب].

ثم استمرت الهجرة، وصار حقًا على المسلمين الجدد فى أرجاء الجزيرة أن يهاجروا إليها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال:٧٢].

وظل الأمر كذلك حتى أُوقفت الهجرة بفتح مكة، عام ثمان من الهجرة، وكذلك لا هجرة من أى بلد يفتحه المسلمون، ويصير دار إسلام: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» متفق عليه.

والهجرة كانت ولا تزال وستظل: دليلاً على الإخلاص والتفانى فى سبيل العقيدة، حيث فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل].

ولما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومى بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة، ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة: ترك لهم أمواله، وهاجر بنفسه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهَيب».

ومنع المشركون أبا سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الهجرة بزوجه وابنه فلم يمنعه ذلك من أن يهاجر وحده تاركًا زوجه وطفله، وقد ظلت زوجه أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تُمسِى نحو عام كامل، حتى تمكنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها.

وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظروف صعبة، كانت تمحيصًا لإيمان المؤمنين، واختبارًا لقوة عقيدتهم، واستعلاء إيمانهم على الأغراض والمصالح والعلائق الدنيوية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل].

ومن هنا: كانت الهجرةُ أمرًا هامًا لإعلاء شأن الدين، ولحصولِ الحرية الكاملة لطاعة الله وعبادته لدى كل فرد من أفراد المؤمنين، كما أن الهجرة لا تقع إلا بسبب الحرب والمضايقة من أعداء الله لأوليائه؛ لذا وغيره: كانت الهجرة النبوية نتيجةً حتميةً لرسالة النبى ﷺ والوحى الذى نزل عليه، وقد أُعْلِمَ بذلك ﷺ من بدء نبوته، وفى مبتدأ رسالته، كما ثبت ذلك فى حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى بدء الوحى.

فيتأكد لدينا: أنَّ الدين الذى من أجله يهاجر كلُّ مسلم: واحدٌ، وهو لا يكمل إلا باتباع خاتم النبيين وسيد المرسلين، والامتثال لما جاء به من وحيٍ عن رب العالمين.

كما دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية النبوية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف فى الأرض، وتحكيم شرع الله، والقيام بأمره، والجهاد فى سبيله، وهم يُقبلون على بناء دولة المدينة المنورة، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وقد اختار الله تعالى المدينة لهجرة المسلمين لِمَا صح عن رسول الله ﷺ: «قد أُرِيتُ دَارَ هِجرَتِكُم، رَأيتُ سَبِخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ..» متفق عليه.

وتأخر الرسول ﷺ فى الهجرة وأخر معه أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فلما أذن الله لرسوله بالخروج لم يُعلِم أحدًا بذلك إلا عليًا وأبا بكر وآله، وكان المشركون قد غاظهم هجرة المسلمين، فائتمروا على قتل رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وقد خرج الاثنان إلى جبل ثور حيث أويا إلى غار فيه، وتعقبهم المشركون إلى المكان حتى بدت أقدامُهم خارج الغار، فقال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَو نَظَرَ أَحَدُهُم تَحتَ قَدَمَيهِ لَرَآنَا، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «يَا أَبَا بَكرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» أخرجه الشيخان.

لكن الله تعالى صرف المشركين عنهما، فلم يفطنوا لهما، وخرج الاثنان بعد ثلاثة أيام فى طريقهما إلى المدينة يقطعان الصحراء، ورسول الله قد بلغ الثالثة والخمسين وأبو بكر بلغ الحادية والخمسين، لكن القلوب الموصولة بالله تعالى لا يعيقها شيءٌ عن بلوغ القصد وتحقيق أهداف الرسالة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

ثم تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، واستمر الحث على الهجرة، وبيان فضل المهاجرين بنزول الآيات القرآنية، واستمر معها تدفق المسلمين الجدد من كل مكان، حيث كانت الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة المنورة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين، ليتوطد سلطان الإسلام فيها، إذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين الذين مردوا على النفاق من حول المدينة، ويترصده كفار قريش الذين أقضَّت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفَتِيِّ ودولته الناشئة، لذلك تتابعت الآيات فى الأمر بالهجرة، وأثبتت بقاءها ودوامها واستمرارها... إذا وجد ما يقتضيها أو يبعث عليها حِسيَّة كانت أو معنوية: كهجر المعاصى والآثام، والبعد عن كل ما نهى الله عز وجل عنه: «وَالمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» متفق عليه.

كما بينت النصوص: استمرار فضلها وعظيم أجرها، حتى وعد الله تعالى المهاجرين بنصرهم والتوسعة عليهم فى أرزاقهم، وتمكينهم من مراغمة أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النساء].

أى أن الذى يخرج من بيته بنية الهجرة فيموت فى الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر.

وكان عدد من اشترك من المهاجرين فى بدر ثلاثة وثمانين رجلاً، ولربما كان عددهم مع عوائلهم إذ ذاك: لا يتجاوز أربعمائة نفر، ومما لا شك فيه: أن تدفق المهاجرين إلى المدينة وَلَّدَ مشاكل اقتصادية واجتماعية، فكان لابد من مواجهتها بقرار حاسم، فَشُرِع نظام المؤاخاة.

ومن ثَمَّ: جوزى المهاجرون بالأجر العظيم، والثواب الجزيل؛ لأنهم تعرضوا لأبشع أنواع الظلم، وأفظع ألوان الابتلاء: أُخرِجُوا من ديارهم، وطُرِدوا من أوطانهم بلا ذنبٍ ولا جريرةٍ إلا أنهم مؤمنون يقولون: ربُّنا الله، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾[الحج:٤٠].

وقد أقسم -سبحانه- على أن يرزق المهاجرين فى سبيله رزقًا حسنًا سواء قُتِلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فُرُشهم فى غير جهاد؛ فقال جل فى علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾[الحج].

والهجرة شرع قديم ومستمر إلى أن يهاجر المسلمون فى آخر الزمان إلى بلاد الشام، حيث منع القرآن الكريم المسلمين القادرين على الهجرة من الإقامة مع المشركين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾[النساء].

وذلك لأن الإقامة مع المشركين: فيها تكثير سوادهم، وانتفاعهم بالمسلمين فى صناعتهم وزرعهم، بل ربما اضطروهم للمشاركة معهم فى حربهم ضد المسلمين كما وقع فى غزوة بدر

الكبرى، بالإضافة إلى تعرضهم للفتنة من قبل الكفار لصرفهم عن دينهم، ولا يخفى ما فى بُعدِهم عن دولة الإسلام من منع استفادة المسلمين منهم فى سلمهم وحربهم ومصالحهم وتكثير سوادهم... ونحو ذلك مما سبق بيانه فى مباحث الهجرة العامة.

ثم إن بعض المسلمين قد تأخر بمكة عن الهجرة تحت ضغط الأزواج والأولاد، فلما هاجروا رأوا إخوانهم الذين سبقوهم من المهاجرين قد تفقهوا فى الدين: هموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، وكان ذلك سببًا فى نزول الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَـٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[التغابن:١٤](١٠٢).

وهكذا سمت العقيدة التى استعلت على الارتباطات القبلية وعصبيتها، وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة التى صار أساسها عقديًا، وأصبحوا يُقَسَّمون إلى ثلاث مجموعات هى: المؤمنون، والمنافقون، واليهود.

فرسالة الإسلام جاءت تنظم أمور العبادات والمعاملات، فهى دستور للحياة، لابد لتطبيقه من أرض وأمة تقام فيها أحكام الله تعالى، حيث اكتمل تشريعها بما نزل فى المدينة المنورة من قرآن، وما نطق به رسول الله ﷺ، أو عَمِلَه، أو أقره أو أمر به من سنة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

فالهجرة كانت هى الفاصل بين عهدى السيرة: عهدها المكى، وعهدها المدنى.

وهى الفاصل بين الإعداد والتهيئة وبناء القاعدة، وبين البدء والبناء.

---

(١٠٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب فى قصة نعيم بن عبدالله النحام تحت عنوان: «إسلام عمر بن الخطاب»، والحديث أخرجه الترمذى ٥/٣٩١ ح٣٣١٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٤٩٠ ح٣٨١٤، وصححه وأقره الذهبى، والحمد لله رب العالمين.

وهى المَعْلَم الذى اختاره المسلمون ليكون بدءًا لتاريخهم منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب التقويم الهجرى.

فالهجرة النبوية كانت مَعْلمًا هامًّا وقع فى وقتٍ معينٍ؛ لكنه قد سبقها جهدٌ كبيرٌ تُوِّجَت به، ثم استمرت مع دعوةِ الإسلامِ، وامتدت مع حياة كل مسلم ومسلمة: ما بقيت الدنيا، وبها اتصل الحاضر الذى نعيشه؛ بالماضى الذى كان فيه أسلافنا؛ فهى عبادة يقوم بها المؤمنون اقتداءً برسول الله ﷺ كلما ألجأتْهمُ الحاجةُ إليها.

وإلى هذا كلِّهِ تشير خاتمة سورة الأنفال حيث قَسَمَت المجتمعات البشرية إلى أربعة أقسام: الكفار بكافة أصنافهم، والمؤمنون الذين لم يهاجروا، والمؤمنون الذين هاجروا وجاهدوا وآووا ونصروا، والمؤمنون الذين جاءوا بعد ذلك مقتدين بسلفهم فى الهجرة والجهاد، وكل ذلك لا يخفى على ذوى البصائر والألباب الذين يتأملون نص الآيات من ٧٢: ٧٥ سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾.

لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزْوَاتِ

قد فصَّلَ القرآن الكريم أحداثًا كثيرةً فى بعض الغزوات كغزوة بدر فى سورة الأنفال، وغزوة أحد وما تبعها من وقائع فى سورة آل عمران، وغزوة الخندق وإجلاء يهود بنى قريظة فى سورة الأحزاب، وإخراج يهود بنى النضير وخذلان مَن عاونهم من إخوانهم المنافقين فى سورة الحشر.. وأحداثًا أخرى تُذكر فى حينها فى آيات متفرقة فى أكثر من سورة كما وقع مع يهود بنى قينقاع ومَن عاونهم من المنافقين فى الآيات: ١٢ و١٣ من سورة آل عمران، والآيات٥١: ٥٦ من سورة المائدة، وبحمد الله كان النصر فيها للمؤمنين والعاقبة للمتقين.

تَمحِيصٌ للمُؤمنينَ فى بَدرٍ وأُحُد

وذلك كلُّه كان بعد الاختبار والابتلاء الذى كشف عن معادن الرجال؛ فظهر به النفيس من الخسيس، وامتاز به الطيب من الخبيث، ومن ذلك: غزوة بدرٍ الكبرى التى وقعت أحداثها فى يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثانى من الهجرة، وقد سمى الله يومها: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المؤمنين والمشركين، ومن الملائكة والشياطين، حيث كان التمحيصُ للمسلمين فى أبدانهم باختيار الجهاد لهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الانفال]، وكذلك كان التمحيص فى نفوسهم وقلوبهم بالغنائم؛ وقبول حكم رسول الله ﷺ فيها حين رغبوا فى أخذ الفداء من الأسرى، قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال].

فَيَومُ بَـدرٍ أَحَـدُ الأَيَّـــامِ ❁❁ مِـن رَمَضَـانَ مَوسِمِ الصِّيَام
وَمَـا تَزَالُ النَّاسُ تُحْيِي الذِّكْرَا ❁❁ بِـهِ وَفِيـهِ يَذْكُـرُونَ الـنَّصْرَا
وَخَــرَجَ النَّبِيُّ فِي جَمَـاعَــة ❁❁ يَطلُـبُ تِلْكَ العِيرَ وَالبِضَاعَـة
لَكِنَّــهُ جَاءَ الصَّرِيخُ المُنْذِر ❁❁ يَقُولُ يَا قُرَيشٌ هَـلَّا تَنفِـرُوا
وَخَرجُوا بِالقَضِّ وَالقَضِيضِ ❁❁ فِي طُـولِ فَخْرِهِمُ وَفِي العَرِيض
وَاجتَمَعُوا فِي بَـدرٍ لِلقِتَــال ❁❁ زهَـاءَ أَلـفٍ فِي جَمِيـلِ حَـال
وَجَيْشُنَا كَانَ قَلِيلاً عَــدَدُه ❁❁ ثُلْـثُ لِأَلــفٍ نَاقِصَـاتٌ عُـدَدُهْ
وَالتَحَمَ القِتَالُ بينَ المُسلِمِين ❁❁ وَالمُشرِكِينَ وَانْجَلَى الحَقُّ اليَقِين
فَمِـنْ قُرَيـشٍ قُتِـلَ سَبْعُونَا ❁❁ يَـا وَيْلَـهُـمْ وَأُسِـر سَبْعُـونَـا
وَمِنهُمُ الذِينَ آذَوا أَحْمَــدَا ❁❁ فِي المَسجِدِ الحَرَامِ يَومَ سَجَدَا
وَوَضَعُوا عَلَيهِ مِنْ فَرَثِ الجَزُورْ ❁❁ وَمَكَـرُوا وَالمَكْرُ كُلُّـهُ يَبُــورْ
وَجَمَـعَ القُتَــلاءَ فِي القَلِيبِ ❁❁ لِكَيْ يَذُوقُـوا أَلَـمَ التَّأنِيـبِ
وَفُدِيَ الأَسْرَى بِالأَمْــوَالِ ❁❁ وَهَـكَــذَا نَتِيجَــةُ القِتَــالِ
وَفِي المُفَاداةِ خِلافٌ قَد جَرَى ❁❁ وَأَيَّـدَ القُـرآنُ فِيـهِ عُـمَــرَا
وَيَوْمُ بَـدرٍ ظَهَــرَ الإِســلَامُ ❁❁ وَهَـــزَمَ البَـاطِـلَ وَالأَصْنَـام
وَالقَائِدُ العَظِيمُ مَهمَا انتَصَرَا ❁❁ لَا يَتْبَعُ الجَيشَ إِذَا مَا انْكَسَرَا
وَرُبَّمَــا يُعَـامِـلُ الجَرِيحَـا ❁❁ بِغَيْـرِ مَا يُعَامِلُ الصَّحِيحَـا
وَصَارَتِ الأَحْكَامُ حِينًا بَعدَ حِينْ ❁❁ تُشْرَعُ لِلإِسْلاَمِ فِي العَشرِ السِّنِين
حَتَّى أَتَــمَّ اللهُ أَمْــرَ الـدِّيـنْ ❁❁ قَـبْـلَ وَفَـاةِ المُصطَفَى الأَمِينْ

وكذلك كان الابتلاء والتمحيص للمؤمنين أشد وأنكى فى غزوة أحد التى وقعت في يوم السبت منتصف شهر شوال من العام الثالث للهجرة؛ حيث وصل إلى المدينة نحو ثلاثة آلاف من المشركين بزعامة أبى سفيان يريدون محق النبى ﷺ وأصحابِهِ انتقامًا للسبعين الذين قُتلوا منهم فى بدر، وقد كان على قيادة خيلهم: خالد بن الوليد؛ الذى اهتبل فرصة نزول الرماة عن الجبل لجمع الغنائم مخالفين وصية رسول الله ﷺ لهم: أن لا يبرحوا أماكنهم؛ سواء انتصر الجيش أو هزم، فاستدار خالد بخيل المشركين، وبغت المسلمين وأربك صفوفهم؛ حتى قُتل سبعون من المسلمين، فضلا عمن جرح وأصيب، وأُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ونزل فى بيان ذلك نحو ستين آية من سورة آل عمران من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩ منها قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

[آل عمران]، ثم أدب الله المؤمنين الذين ما زال فى قلوبهم حب الدنيا؛ حتى لا يعودوا لمخالفة أمر

رسول الله ﷺ مهما كان الثمن؛ بعد أن اتخذ من خيرتهم وصفوتهم سبعين شهيدًا، وذلك جلى فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران].

أخرج البخارى من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ – أى: الرُّماة– يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً، عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ –البراء–: فَأَنَا وَاللهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْدُدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ ابْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِئَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلاً، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ –أبو سفيان–: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ،

وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى، وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

وقد سبق فى سيرة خير البرية ﷺ أكثرَ من مثال للمقارنة بين ما كان عليه الجاهليون من أخلاق عُليا؛ وبين ما فيه المعاصرون من تسفُّل وسفه على الرغم من تحضرهم المزعوم، فهذا زعيم المشركين فى الحرب (أبو سفيان) يعتذر عما صنعته امرأته والنسوة اللائى كن معها من تمثيل بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ يُقَطِّعنَ الآذان وَيُجَدِّعنَ الأُنُوف، وبَقَرَت هند بنت عتبة بطن سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب واستخرجت كبده ولاَكَتْهُ بأضراسها ثم لَفظته... فقال أبو سفيان: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا..» وكل مطالع لهذه السيرة أخبرُ منى وأبصر بما يفعله بعض المسلمين بإخوانهم فى هذا الزمان، فالله المستعان(١٠٣).

وَبَعْدَ عَامٍ غَزْوَةٌ فِي أُحُدِ ❁❁ ثَعَالِبُ تَغْزُو عَرِينَ الأَسَدِ
صَخْرُبنُ حَرْبٍ فِي جُيُوشِ الكُفْرِ ❁❁ جَاءَ لِمَحْوِ العَارِيَومَ بَدْرِ
وَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ ❁❁ وَبَعْضُهُم فِي الرَّأيِ ضِدُّ بَعْضِ
فَابْنُ أُبَيٍّ صَاحِبُ النِّفَاقِ ❁❁ يَدعُو إِلَى الفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ
وَالأَمْرُ جَاءَ لِأَخِي خَوَاتِ(١٠٤) ❁❁ أَنْ يُلْزِمَ الرُّمَاةِ بالثَّبَاتِ

---

(١٠٣) الحديث فى صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالاِخْتِلاَفِ فِي الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ ح٣٠٣٩ واللفظ له، وبنحوه مختصرًا ح٣٩٨٦، وح٤٠٦١، وح٤٠٦٧، ومسند الإمام أحمد ح١٨٥٩٣. وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١، ٩٢، وراجع فى هذا الجزء: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ»، وبعد الهامش رقم ٦١ فى عنوان: «ليلة الهجرة».

(١٠٤) أخو خوات بن جبير هو: عبدالله بن جبير الأنصاري شهد العقبة وبدرًا، واستشهد بِأُحُد مع الرماة العشرة الذين

لَكِنَّهُم لَمَّا رَأَوْا الهَزِيمَهْ ✿✿ قَالُوا لِمَاذَا نَتْرُكُ الغَنِيمَهْ
وَخَالَفُوا أَمْرَ أَمِيرِهِمْ ✿✿ فَمَكَّنُوا الأَعْدَاءَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ
وَصَمَدَ النَّبِيُّ فِي القِتَال ✿✿ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةُ الأَبْطَال
مِثْلُ أَبِي دُجَانَةَ المِغْوَار ✿✿ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار
وَخَاضَتِ النِّسَاءُ تِلكَ المَعْرَكَة ✿✿ وَاشْتَرَكَتْ نَسِيبَةٌ فِي الحَرَكَة
وخُضِّبَ النَّبِيُّ بِالدِّمَاء ✿✿ وَغَسَلَتْهَا ابنَتُهُ بِالمَاء
أَكْرِمْ بِهَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ ✿✿ مَا أَحْسَنَ الطَبِيبَ وَالدَّوَاءَ
وَحَمْزَةٌ وَمُصْعَبٌ فِي سَبْعِين ✿✿ قَدْ قُتِلُوا مِنَ الرِّجَالِ المُؤمِنِين
قَالَ أَبُو سُفيَان فَلْيَعْلُ هُبَلْ ✿✿ فَقِيلَ إِنَّ اللهَ أَعْلَى وَأَجَلْ
قَالَ لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ✿✿ قَالُوا لَنَا المَوْلَى وَلَا مَوْلَى لَكُمْ
وَقِيلَ إِنَّهُم سَيَغْزُونَ البَلَدْ ✿✿ وَسَارَ بَعْدَهُم إِلَى حَمْرَا الأَسَد
جَمَاعَةٌ يَقُودُهُمْ مُحَمَّدُ ✿✿ لِيَأخُذُوا بِالثَّأرِ أَوْ يُسْتَشْهَدُوا
وَنَزَلَ القُرآنُ فِيهِم يُتْلَى ✿✿ وَمِثلُهُم لَا يَرْهَبُونَ القَتْلَ

وأذكر هنا بعض النماذج المُثلَى فى الغزوتين تجسد ما كان عليه الصحابة من قيم، وتبرهنُ على صدقهم فى الطاعة والحب لله ولرسوله:

- فهذا أبو عبيدة بن الجراح؛ الذى قال فيه عمر بن الخطاب حين رأى عيشَه الخشن: «كلنا غَيَّرَتْهُ الدنيا غَيْرَكَ يا أبا عبيدة» قيل: اسمه عامر بن عبدالله بن هلال القرشى، هو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، كان إسلامه هو وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد في ساعةٍ واحدةٍ قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة،

ثبتوا معه ولم يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم.

وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، شهد بدرًا، وأُحدًا، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وأبو عبيدة هو الذي انتزع حلقتى المِغْفَر من وجه رسول الله ﷺ يومَ أحدٍ، فسقطت ثنيتاه من ذلك، توفى في طاعون عمواس سنة ثمانٍ عشرة من الهجرة، عن أنس بن مالك، ونحوه، عن حذيفة، أن رسول ﷺ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» متفق عليه، واللفظ للبخارى، وهذا الصحابى مع فضله ومكانته! انظر ماذا صنع بأبيه المشرك لما حارب الله ورسوله، ففى المعجم الكبير للطبرانى بسند جيد: أن والد أبي عبيدة ابن الجراح كان يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر: قَصَدَهُ أبو عبيدةَ فقتَلَهُ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة](١٠٥).

- وهذا أبو حذيفةَ؛ صحابى جليل مشهورٌ بكنيته، مختلفٌ فى اسمه، وهو ابن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبدمناف القرشى: كان من فضلاء الصحابة، جمع الله له الشرف والفضل، فكان من السابقين، وأسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة وأربعين إنسانًا، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين

---

(١٠٥) ترجمة أبى عبيدة، فى: المعجم الكبير للطبراني ١/١٥٤، ١٥٥ ح٣٦٠، وحلية الأولياء ١/١٠٠: ١٠٢، وأسدالغابة ٦/٢٠٥، ٢٠٦، والإصابة ٣/٤٧٥: ٤٧٨، و٧/٢٢٥، والحديث المتفق عليه، فى: صحيح البخاري ح٤٣٨٠: ٤٣٨٢، وصحيح مسلم ح٢٤١٩،٢٤٢٠، ومسند الإمام أحمد ٣/١٨٩، ٢٤٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٦/٢١٠، ٣٧١.

عباد بن بشر الأنصاري، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقُتِل يوم اليمامة شهيدًا، عن بضعٍ وخمسين سنة، تأمل موقفه من أبيه الذى قُتِل ودُفن فى قَلِيبِ بدر! قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما أُلْقُوا– يعني قتلى المشركين– يوم بدر، وقف رسول الله ﷺ عليهم وقال: «يا عتبة، ويا شيبة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل – يعدد كل من فى القليب – هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؛ فقد وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» وقال ابن إسحاق: وحدثنى حُميد الطويل، عن أنس... فذكره بأطول منه، وقال ابن إسحاق: فبلغني أن رسول الله ﷺ نظر عند مقالته هذه في وجه أبى حذيفة بن عتبة فرآه كئيبًا قد تغير، فقال رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟» قال: لا، واللهِ ما شككتُ في أبى ولا في مصرعه، ولكنى كنت أَعرِفُ من أَبِى رأيًا وحِلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يُقَرِّبَه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابَه وذكرتُ ما مات عليه مِن الكُفرِ بعد الذى كنتُ أرجو له، حزننى ذلك، فدعا رسول الله ﷺ لأبى حذيفة بخير، وقال له خيرًا(١٠٦).

- وهذا أبو عزيز بن عمير؛ شقيقُ: مصعب بن عمير، يقع فى الأسر يوم بدرٍ، فلعلك تَعَجب ماذا صنع به أخوه مع الذى أسره؟! قال ابن إسحاق: وحدثنى ابن وهب أخو بنى عبدالدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال ﷺ: «استوصوا بهم خيرًا»، وكان أبو عزيز– واسمه: زرارة– بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسرى، قال أبو عزيز: مَرَّ بِى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال: اشدد يديك به فإن أمه ذات متاعٍ لعلها تفديه منك... قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا

(١٠٦) ترجمة أبى حذيفة، فى: الإصابة ٧/ ٧٤، وأسد الغابة٦/ ٧١، ٧٢، والحديث مطولاً فى: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٨: ٦٤١، وحديث أنس مطولاً ومختصرًا ح٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٣/ ١٠٤ ح ١٢٠٢٠، و٣/ ١٤٥ ح١٢٤٧١، و٣/ ١٨٢ ح١٢٨٧٣، و٣/ ٢٦٣ ح١٣٧٧٣، وعن أبى طلحة فى ٤/ ٢٩ ح١٦٣٥٦.

صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبى اليَسَرِ- وهو الذى أسره- ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخى! هذه وَصَاتُك بى؟!! فقال له مصعب: إنه أخى دونك، فسألتْ أُمُّه عن أغلى ما فُدِى به قُرَشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثتْ بأربعة آلاف درهم، ففدته بها، وقد أكرم الله أبا عزيزٍ بالإسلام بعد ذلك والصحبة لرسول الله ﷺ، وقد غلط من قال إنه قُتِلَ يوم أُحدٍ كافرًا، والحمد لله على ذلك(١٠٧).

• وهذا مصعب بن عمير الذى كان معه لواء المسلمين فى غزوة أحد حتى استشهد بها، ثبت فى الصحيح من حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى، أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً- أى: ثوبًا- كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ؛ خَرَجَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاهُ؛ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ» أَوْ قَالَ: «أَلْقُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ الإِذْخِرِ» وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ: فَهُوَ يَهْدِبُهَا. أى: يجنيها ويستمتع بها، وهذا الحديث يدل على أن مصعب بن عمير كان متقشفًا زاهدًا بعدما كان مع أبويه أنعم غلام وأجوده ثوبًا؛ ولكنهم لم يجدوا لكفنه بعد موته إلا ثوبًا قصيرًا لا يستر جميع جسده، فإذا غطوا به رجليه ظهر رأسه، وإذا غطوا به رأسه ظهرت رجلاه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ شَيئًا مِن الإِذْخِرَ» وهو نباتٌ طيب الرائحة يضعه أهل مكة والمدينة فى بيوتهم وقبورهم(١٠٨).

---

(١٠٧) يُراجع: السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٥/١، ٦٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٦/٣، ٣٠٧، والإصابة ٢٢٨/٧ ترجمة عزيز بن عمير، و٣٨٠/٧ ترجمة أبى اليَسَرِ الأنصارى، وللفائدة: راجع قصة حذيفة بن اليمان ٢٢١/١،٢٢٠.

(١٠٨) راجع ما تقدم فى هذا الجزء تحت عنوان: «أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير».

- وختام هذه النماذج: حنظلةُ غسيل الملائكة: هو ابن أبى عامر بن صيفي بن مالك، الأوسى الأنصاري، صحابي جليل كان حديث عهدٍ بالزواج، فسمع الدعوة للجهاد، فخرج مسرعًا دون أن يغتسل من الجنابة إلى غزوة أُحد، ثم استُشْهِدَ بها، فغسَلتة الملائكة، وأما أبوه الذي كان يُدْعَى في الجاهلية بالراهب: فقد حسد النبي ﷺ ولم يؤمن، وحضر غزوة أُحد مع المشركين فاستأذن حنظلةُ النبي ﷺ في قتل أبيه فنهاه ﷺ عن ذلك. وظل على كفره حتى مات بأرض الروم(١٠٩).

وبهذا الأدب الربانى؛ والتقويم الإلهى، والتربية المُثْلَى... تركز الولاء والإخلاص فى قلوب أصحاب النبى ﷺ الذين اختارهم الله لرفقة نبيه ومؤازرته ونصرته... فترجمتْه جوارحهم عملاً وسلوكًا، وقد سردت سورة الأنفال جوانب عديدة من غزوة بدر، كما بينت سورة آل عمران مواقف كثيرة من غزوة أحد، والله أعلم.

وبهذا تحيا المبادئ التي يظن الناس أن أصحابها قد فنوا، لتأسيسها وترسيخ العقائد التي رواها أهلُها بدمائهم، وهم عند الله أحياء يرزقون فرحين مستبشرين: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

---

(١٠٩) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «افْتَخَرَ الحَيَّانِ مِنَ الأَنْصَارِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، فَقَالَتِ الأَوْسُ: مِنَّا غَسِيلُ المَلَائِكَةِ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنِ اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتْهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الأَقْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيزَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَتِ الخَزْرَجِيُّونَ: مِنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا القُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَجْمَعْهُ غَيْرُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» مسند أبى يعلى ٣٢٩/٥ ح٢٩٥٣، وقال محققه: إسناده صحيح، ونحوه فى المعجم الكبير للطبراني ١٠/٤ ح٣٤٨٨ ترجمة ٣١٥: حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ الرَّاهِبِ الْأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الْأَوْسِيُّ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد/ كتاب المناقب، باب: فضل الأنصار ٤١/١٠ وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.

بعد أن أظهرت نتائج غزوة بدر جوانب عديدة من قوة المسلمين، وتأييد الله لهم: بدأ غرس النفاق يُخرِج شطأه ويشتد أزره لموالاتهم لشياطينهم من اليهود القاطنين معهم فى المدينة المنورة، وظلَّ ذلك المكر يتنامى ويتعاظم حتى وصل إلى جذوته بالمواجهة والحرب المعلنة، وذلك واضح فى إجلاء اليهود من المدينة كلما نقضوا العهود ولم يلتزموا بالمواثيق، ومن تأمل الآيات فى سور: آل عمران والحشر والأحزاب: عرف ذلك فيما حدث لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ومَن ناصرهم من المنافقين.

وهذا نموذج لهذا المزيج العَكِر بين المنافقين وشياطينهم من اليهود: ذكر الزهري أن إجلاء بنى قينقاع وقع في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنه كان يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أن ذلك وقع بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ماأصاب قريشاً في بدر، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يامحمد لايغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لايعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا..، وهكذا بدأت الأزمة تتفاقم إذ لم يكن في جوابهم مايشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحدٍّ واستعلاء واستعداد للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ

وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف ﷺ على المدينة: أبا لبابة بن عبدالمنذر العمري واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]، وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة كما ذكر ابن هشام، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بذلك، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد، وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من

المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي، وحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفاء ه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه، فاضطر عبدالله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد! أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يامحمد! أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أُبَي يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك! أرسلني» قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ماكان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال:لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبَي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أُبَي الجدار فسال الدم، ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبَي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام، وهناك

بُعدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث إن بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبدالله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولايتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبدالله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه، بل أرادوا قتله . ولاينسى مسلم موقف ابن سلول يوم أُحد حين رجع بثلث الجيش من الطريق وكان عددهم ثلاثمائة مقاتل تقريبًا .

أما موقف عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان على النقيض مما كان عليه ابن سلول: إذ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عزوجل وإلى رسوله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يارسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف هؤلاء اليهود وولايتهم، وفى ذلك نزلت الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يُجلِيَهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج – ونحن مواليك – فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أُبَي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبدالله بن أُبَي: تبرأتَ من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكّره مواطن قد أبْلَوا فيها، فقال عبادة:يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمُعْتَصِمٌ بأمر سنرى غَيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دَيْناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تَعَجَّلوا وضعوا» وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولاساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيد عليها هذا أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام، ولحقوا بأذرعات، وهكذا خرجوا من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين وقد كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وكسر شوكتها، والفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى كان مثلاً حياً للمسلم الصادق المخلص لعقيدته؛ إذ تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه وقوي إيمانه وتنور عقله،

فتخلص من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة(١١٠).

شَقَّ عَلَى الكُفَّارِ مِن أَهْلِ الكِتَابْ ❁❁ وَالمُشْرِكِينَ مَا رَأَوْا مِنَ الصَّوَابْ
وَأَنَّ هَـذَا الـدَّاعِيَ العَظِيمَا ❁❁ قَدْ جَعَلَ الإِسلَامَ مُسْتَقِيمَا
وَأَنَّـهُ فِي قَومِـهِ يَسُـودُ ❁❁ وَحَوْلَـهُ فِي يَثْرِبَ الأُسُودُ

شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ

وبعد ما أصاب المسلمين من ابتلاء فى أحد؛ حيث قُتِل منهم سبعون: ظنت القبائل المتناثرة خارج المدينة في الجزيرة العربية أنها تستطيع أن تُوقِعَ بالمسلمين أمثالَهَا، فأخذوا يكيدون ويمكرون، ويظهرون خلاف ما يبطنون؛ فَأَبدت قبائل متعددة الرغبة في الدخول في الإسلام، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُمِدَّهم بما يعينهم على تحقيق ذلك، فكانت واقعة الرجيع، وبئر معونة بعد أُحد بنحو أربعة أشهر، وبالتحديد: في شهر صفر من العام الرابع للهجرة،

(الرجيع) ماءٌ لقبيلة هُذيل قرب مكان يسمى (الهَدأَةُ) ويقال: (الهُدَّةُ) وهو موضع بين عُسفان(١١١) ومكة، كانت الوقعة عنده فسميت به.

و(بئر معونة) هى بين أرض بنى عامر وحَرَّةِ بني سُليم، حيث غدر بالقراء: قبائل رِعل-

(١١٠) ينظر فى ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ٣/٥٤، ٥٥، والمغازي للواقدي ١/١٧٦، والطبقات لابن سعد ٢/٢٨، ٢٩، وتاريخ الطبري ٢/٤٨١، والمحرر الوجيز لابن عطية ١/٤٧٧، ٤٧٨ تفسير آيات سورة المائدة، والسيرة النبوية الصحيحة ١/٢٩٩: ٣٠٢، وموسوعة نضرة النعيم ١/٢٦٩، واليهود في السنّة المطهرة ١/٢٧٦، ٢٧٩: ٢٨٥، والسيرة النبوية دروس وعبر لعلى محمد الصلابى «غزوة بنى قينقاع».

(١١١) عُسْفان: بمهملتين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، بعدها فاء آخره نون، علي مرحلتين من مكة وسميت عُسْفان لتعسف السبل فيها، وقيل: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع علي ستة وثلاثين ميلاً من مكة، معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢.

بكسر الراء- وذكوان وغيرهم، وهذه تعرف بسرية القراء الذين كان عددهم سبعين صحابيًا، و(الرجيع) و(بئر معونة) متقاربتان في الزمان والمكان؛ حتى إن بعض مصنفي السير خلط بينهما، وكُلُّهم يقدم موقعة الرجيع على بئر معونة، لكني أُقدم شهداء بئر معونة لشرف القراء، وإظهار التواتر الثابت للقرآن الكريم منذ زمنه الأول، والله المستعان.

وفيما يلي بيان لهاتين الحادثتين مع تجلية ما يستفاد من كل منهما، وبالله التوفيق.

فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

هذا نموذج لحفاظ القرآن يحقق التواتر ويؤكد حفظ القرآن لدى الكثيرين من الصحابة بصفةٍ عامةٍ، ومن الأنصار على وجه الخصوص في وقت نشأة الإسلام وغربته بين قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة العربية، حيث قُتل في موقعة بئر معونة سبعون رجلاً من الأنصار كلهم من قُرَّاءِ القرآن وحفظته، يقول أنس بن مالك: كنا نسميهم القراء، يَحتطِبون بالنهار، ويُصَلُّون بالليل، حتى بلغوا بئر معونة، فغدروا بهم- يعني: الذين زعموا أنهم أسلموا- وقتلوهم، فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع: بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا(١١٢).

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الحادثة: ... مع أن هذه الواقعة تُوجبُ على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة، إِلَّا أن ضرورة بث الدعوة- مهما فدحت الخسائر- جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمرٌ لابد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر، لأن الانسحاب من السوق بُغْيَةَ تجنبها: قضاء عليه، فهو يبقى متحملاً حتى تَهُبَّ الريحُ من جديد رخاءً تعوِّض ما

(١١٢) ينظر: صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب العون بالمدد ٦/ ١٨٠ ح٣٠٦٤، وكتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع... وبئر معونة ٧/٣٥٨، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١.

فَقَدَ، وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء؛ عامر بن مالك الملقَّب بـ(ملاعب الأسنة) حين عرض عليه أن يُرسل وفدًا من الدعاةِ ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبي ﷺ خشيته من أن يُصاب رجاله بسوء، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذِمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار(١١٣).

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا (بئر معونة) وكانوا سبعين من خيار المسلمين يُعرفون بالقراء، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، ويَحْيَوْن على هذا النسق الرتيب بين جهادٍ في الحياة ورغبةٍ في الآخرة.

فلما أمرهم الرسول ﷺ بالمسير لإبلاغ رسالات الله، خرجوا، وما كانوا يعرفون أنهم -جميعًا- يحُثُّون الخُطَا إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجاجها.

وحين انتهى القراء إلى (بئر معونة) بعثوا أحدهم -حرام بن ملحان- إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام فلم ينظر (عامر) في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة، فما شعر (حرام) إلا وطعنةً نجلاءَ تخترق ظهره وتنفذ من صدره، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم فقد صاح (حرام) على أثر ذلك: فُزتُ وربِّ الكعبة!.

ومضى (عامر) في غَشَمِه، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت إليه قبائل (رِعْلٍ) و (ذكوان) و(القارة) فهجم بهم عامر على القراء الوادعين.

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوبٍ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يَغشَوهُم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم.

---

(١١٣) رواه ابن هشام ١٨٤/٢، عن ابن إسحاق بسندٍ صحيح مرسلاً، وكذا رواه الطبراني، عن ابن إسحاق كما في مجمع الزوائد ١٢٨/٦، ١٢٩ ورواه الطبراني أيضًا من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم (عمرو بن أمية الضمري) ولم يعرفا النبأ المحزن، إلَّا من أفواج الطير المتوحشة، تنطلق نحو المعسكر مُحَوِّمةً حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر، طامعة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها، قالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا. فأقبلا لينظرا فإذا القوم مضرجون في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة! قال زميل عمرو له: ماذا ترى؟ قال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ نقص عليه الخبر، لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى (المنذر) لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلاً: ما كنتُ لأرغبَ بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر! وما كنت لأبقى حتى أَقُصَّ خبره على الرجال! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل وأُخِذَ عمرو أسيرًا، فأعتقه (عامر بن الطفيل) كبير الغادرين عن رقبةٍ زعم أنها على أمه!.

ورجع (عمرو) إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المُصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذَكِّرُ نكبتهم الكبيرة بنكبة (أُحُد) إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتالٍ واضح، وأولئك ذهبوا في غدرةٍ شائنة.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظًا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب؛ بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة: أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلٍ كامنٍ على الإسلام وأهله، غلٍ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل قادرٍ أن يُلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء.

وفى طريق (عمرو) إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من (بنى عامر) فقتلهما ثائرًا لأصحابه، ثم تبين أنهما من (بني كلاب) وأنهما معاهدَين للمسلمين.

ولما قدم (عمرو) على الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخبره الخبر، قال النبي ﷺ للناس: «إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ

وَرَضِيتَ عَنَّا»(١١٤).

ثم قال النبي ﷺ لعمرو: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا» وانشغل بجمع دياتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود!.

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل... وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضِغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال].

غير أن هذه الكراهية قد بدا نبتها بعد انتصار (بدر) بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلَّبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد قلنا: إن النبي ﷺ أدرك هذه الحال بما فعله مع يهود بني قينقاع، وكذالك بعد (أحد) إذ بذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتْباع (أحد) بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد(١١٥).

---

(١١٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٨٨/٧، ٣٨٩ ح٤٠٩٣ من طريق هشام بن عروة، عن أبيه مرسلاً، لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث أنس ٣٨٥/٧، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١، والطبراني من حديث ابن مسعود كما في مجمع الزوائد ١٣٠/٦.

(١١٥) كتاب: «فقه السيرة» للإمام الغزالي ص٣١٦: ٣١٩ مع تصرف يسير، ط الأولى، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وتنظر القصة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام ١٨٣/٢: ١٨٩ والسيرة النبوية لابن كثير ١٣٩/٣: ١٤٤.

عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهم

وهذا نموذج آخر يُشبه حال من سبقهم، متفق معهم في الزمان، ومُقاربٌ في الجهةِ والمكان إذ كان في أول السنة الرابعة من الهجرة أيضًا، ولكنهم هذه المرة كانوا عشرة رجال صبروا وثبتوا على الحق حتى نالوا الشهادة، وذلك حين بعثهم رسول الله ﷺ عيونًا إلى مكة، ليأتوه بخبر قريش، وهم: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وهو أميرهم، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخُبَيْبُ بن عَدى الأنصاري، وزيد بن الدَّثِنَّةِ الأنصاري، وخالد بن بُكَير حليف بني عَدي بن كعب، وعبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلَوِى، ومُعتب بن عُبيد أخو عبدالله بن طارق لأمه، وهؤلاء كلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام في المدينة، وكلهم قد شهدوا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى. قال الحافظ ابن حجر: ولعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم(١١٦) فظلوا يسيرون الليل وَيَكْمُنُونَ النهار، فنزلوا بالسَّحَرِ فأكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض، فجاءت امرأة من هُذيل ترعى غنمًا، فرأت النواة فأنكرت صِغرها، وقالت: هذا تمر يثرب! فصاحت في قومها: أُتِيتُم، فجاءوا في طلبهم فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، فلم يَرُعْهم القوم إِلَّا والرجال بأيديهم السيوف قد غَشَوْهم، وكان ذلك بمكان يسمي(الهَدْأَةُ)(١١٧) بين مكة وعُسفان على سبعة

---

(١١٦) فتح الباري ٧/ ٣٨٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/١٦٩: ١٧٤ وتراجمهم في: الإصابة ٢/١٩٤، ٢٢٥: ٢٢٧، ٥٠٠، و ٣/ ٤٦٠، ٤٦١، و ٤/ ١١٧، و ٦/ ٥٥، ٥٦، ١٣٦، ١٣٧ ط دار الكتب العلمية بيروت، وقصتهم قد أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه، وأول ترجمة ذكرها فيها هي قوله: باب؛ هل يستأسر الرجل، أي: هل يُسَلِّمُ نفسه للأسر أم لا؟ فتح الباري ٦/ ١٦٥: ١٦٧، كما أخرجها أصحاب السنن والمسانيد والسِّيَرِ والطبقات كلهم من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعدُ: إحدى هذه الطرق مع تخريجها، ولكننا الآن سنسوق القصة بمجموع رواياتها، والله الموفق.

(١١٧) (الهَدأَةُ) بفتح الهاء والهمزة بينهما مهملة ساكنة، كما في البخاري ٦/ ١٦٦ ويقال: (الهُدَّةُ) بضم الهاء وتشديد المهملة

أميال منها، فلجأ أصحاب رسول الله ﷺ إلى رابية مشرفة أو أرض مرتفعة عالية، فأحاط بهم مائة من بني لِحْيان(١١٨) كلهم رُمَاةٌ ومعهم مثلُهم يشدون أزرهم، ومن ورائهم قومُهم من هُذيل ينصرونهم؛ فقالوا لهؤلاء الرجال الذين يعدون على الأصابع: اعطوا بأيديكم، واستسلموا للأسر، وانقادوا لنا، فإنا والله لا نريد قتالكم؛ إنما نريد أن نصيب منكم شيئًا من أهل مكة، فقال عاصم: أما أنا فلن أنزل في ذمة كافر، ولا أقبلُ عهدًا من مشرك، اللّهم أخبر عنا رسولك، اللّهم إني أحمي لك اليوم دينك؛ فاحم لي لحمي.

فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسولَه خبره، فأخبر ﷺ أصحابه بذلك يوم أصيبوا، وحمى الله عاصمًا من أعدائه فلم ينتهك أحدٌ منهم حُرْمَتَهُ، ولم يقدروا على مس شيءٍ منه، حيث أرادت هُذيل قطع رأسه بعد قتله ليبيعوه لامرأة يقال لها: سلافة بنت سعد؛ أم مسافع وجُلاس، ابني طلحة العبدري اللذين قتلهما عاصم يوم أُحد، وكانت نذرت لئن قدِرتْ على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فأرسل الله على جسده مثل الظُّلَّة من الدِّبْرِ(١١٩) حتى صارت كالسحابة، كلما اقتربوا منه: طارت في وجوههم تَلدغُهم، فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْرَةُ قالوا: دعوه يُمسِي، فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي سيلاً فاحتمل عاصمًا فذهب به، وكان عمر يقول لما بلغه خبره: «يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته» وذلك لأن عاصمًا

المفتوحة كما في البخاري ٣٠٨/٧ وقيل في ضبطها غير ذلك، وهى موضع بين عُسفان ومكة، قرب ماءٍ لقبيلة هُذيل يقال له (الرجيع) كانت الوقعة عنده فسميت به، وهذه كانت قبل سرية القراء الذين تقدم ذكرهم. ينظر: فتح الباري ٣٧٩/٧، ٣٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢، ١٨٣: ١٨٧، ومراصد الاطلاع ١٤٢/١، و٦٠٦/٢، و ١٤٥٣/٣.

(١١٨) (لِحْيان) بكسر اللام وسكون المهملة، حي من هُذيل، وفى رواية البخاري ١٦٦/٦ قريبًا من مائتي رجل ... والجمع بينهما ممكن كما ستراه. وعمدة القاري ٢٩٢/١٤، ٢٩٣.

(١١٩) (الدِّبْرُ، والدَّبْرَةُ) بفتح وتشديد المهملة وسكون الموحدة التحتانية، جماعة النحل والزنابير. القاموس ص٤٩٨.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد أعطى اللهَ عز وجل عهدًا أن لا يمس مشركًا، ولا يمسه مشرك(١٢٠).

كما حيل بين قريش وبين عاصم حين أرسلت من يأتي بشيء من جسده يعرفونه، لأنه قتل عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر، ولقد كان عقبة بن أبي معيط كما ذكر ابن كثير: شَرَّ عباد الله، وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله، ولما أمر رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة عاصم بن ثابت أن يُقَدِّمَ عقبة من بين الأسرى فيضرب عنقة، قال عقبة: يا معشر قريش! علام أُقْتَلُ من بين من هَا هُنَا؟ فقال له عاصم: على عداوتك لله ورسوله(١٢١).

وهكذا مضى عاصم في سبعة من رفاقه إلى ربهم شهداء بررة مقبلين غير مدبرين، قد اختاروا لأنفسهم الحياة الحقة، في أكرم المنازل وأعلاها مع النبيين والصديقين، وبقى للناس عظيم القدوة فيهم وجميل التأسي بهم إلى يوم الدين، ولا تزال كلمات عاصم تدوي في سمع الزمان وهو يناضل في هذا القتال غير المتكافئ حيث يقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلٌ ❁❁❁ وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عُنَابِلُ

تَنْزِلُ عَنْ صَحْفِهَا الْمَعَابِلُ ❁❁❁ الْمَوْتُ حَقٌ وَالْحَيَاةُ بَاطِلُ

وَكُلُ مَا حَمَّ الإِلَهُ نَازِلُ ❁❁❁ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ إِلَيْهِ آئِلُ

إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ(١٢٢)

---

(١٢٠) يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١/٣٩، ٤٠ ط التحرير – القاهرة، مع ما تقدم من المراجع.

(١٢١) (قتل الأسير صبرًا) هو: أن تشد يداه ورجلاه ويمسك حتى تضرب عنقه، وذلك بخلاف المُثْلَةِ: التي هي قطع بعض الأطراف كالأنف والأذن وغيرهما قبل القتل أو بعده، وهى مَنْهِيٌّ عنها.ينظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٥٨، و٤/٢٩٤، والبداية والنهاية ٣/٣٠٥، ٣٠٦.

(١٢٢) ذكر هذه الأبيات مع غيرها ابن هشام في السيرة ٢/ ١٧٠(النابل) صاحب النبل، ويروى (بازل) وهو القوى (عُنابل) بالضم غليظ شديد (المعابل) جمع معبلة، وهو: نصل عريض طويل (حمَّ الإله) قدَّره، (وآئل) صائر وراجع.

وكذلك بقية العشرة: أعني عبدالله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، قد لحقوا بأصحابهم، على خير حال، وسلكوا طريق سلفهم إلى أحسن مآل، وإن كانوا في بادئ الأمر قد رضوا بالرخصة بدل العزيمة حيث رَقوا ولانوا واستسلموا للأسر وثوقًا منهم بعهد المشركين وميثاقهم، فلما أعطوا بأيديهم حل المشركون أوتار قِسِيِّهِم فربطوهم بها، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر، وأَبَى أن يصحبهم، فسحبوه وجروه حتى استُشْهِدَ، وفى رواية ابن إسحاق: أنه انتزع يده من القِران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وكان ذلك بمر الظهران وقبره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هناك.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدَّثِنةِ فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان مع مولى له يقال له: نيسطاس الى التنعيم(١٢٣) وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالسٌ في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا(١٢٤).

وأما خُبيب بن عدى: فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بأبيهم الحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، كما صرح بذلك أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل الذي وعدنا القارئ الكريم بمطالعته كاملاً، وهذه رواية البخاري في باب فضل من شهد بدرًا: قال أبو

(١٢٣) التنعيم: أقرب أماكن الحل إلى الحرم، وكان بينه وبين مكة نحو خمسة كيلو مترات، ويسمى بالتنعيم لأن على يمينه جبل نعيم، وعلى يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نَعْمَانُ -بفتح النون وسكون المهملة- ونقل الحافظ ابن حجر، عن موسى بن عقبة: أن خُبَيْبًا صلى ركعتين بموضع مسجد التنعيم. فتح الباري ٧/٣٨٣، والقاموس المحيط ص١٥٠٢.

(١٢٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧١، ١٧٢.

هريرة: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ، جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ! فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا القَوْمُ! أَمَّا أَنَا فَلا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةُ نَفَرٍ عَلَى العَهْدِ وَالمِيثَاقِ، مِنْهُمْ: خُبَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ، وَاللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ القَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الحَارِثِ مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا(١٢٥) فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا(١٢٦) فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ قَالَ

---

(١٢٥) (مُوسًى) يجوز تنوينها وعدمه، وهى آلة يزال بها الشعر (يَسْتَحِدُّ بِهَا) أي: يتطهر بها ويحلق شعر عانته، خشية أن يظهر منه قبيح إن صلبوه أو مثلوا به بعد قتله، كما أن هذا العمل سُنَّة من سنن الفطرة. فتح الباري ٧/٣٨٢.

(١٢٦) وفى رواية ابن إسحاق: فلقد اطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنبًا يؤكل. السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧٢.

لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ❁❁❁ عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ❁❁❁ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(١٢٧)

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا: الصَّلاةَ، وَأَخْبَرَ- يعنى: ﷺ- أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ- وهو عقبة بن أبى معيط- فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنْ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا»(١٢٨).

وزاد ابن إسحاق في آخر الخبر: فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حَضَرْتُهُ يومئذٍ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقًا من دعوة خُبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعى عليه، فاضجع لجنبه زالت عنه، قال ابن إسحاق: حدثني يحي بن عَبَّادٍ بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عَبَّادٍ، عن عقبة بن الحارث(١٢٩) قال: سمعته يقول: ما أنا والله قتلت

---

(١٢٧) فى رواية أخرى فى الصحيح: (ولستُ أُبالى...) ، (أَوصال) أى: أعضاء، (شِلوٍ) بكسر المعجمة وسكون اللام: الجسد، (مُمَزَّعٍ) أى: مقطع. فتح البارى٧/٣٨٤.

(١٢٨) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب هل يستأسر الرجل؟ ٦/١٦٥، ١٦٦، وفى كتاب المغازى: باب١٠ (واللفظ له) ٧/٣٠٨، ٣٠٩، وفى باب غزوة الرجيع ٧/٣٧٨، ٣٧٩، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الرجل يستأسر ٣/١١٥، ١١٦ ح٢٦٦٠، ومسند الإمام أحمد: ٢/٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٠ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ ٧٩١٥، ٨٠٨٢، ومسند الطيالسى ص٣٣٨ ح٢٥٩٧، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب السير/ باب صلاة الأسير إذا قدم ليقتل ٩/١٤٥، ١٤٦.

(١٢٩) هذا سندٌ صحيحٌ، وعقبة بن الحارث النوفلي: صحابي أسلم بعد فتح مكة، وبقى إلى خلافة عبدالله بن الزبير، انظر: الإصابة ٤/٤٢٧، وتقريب التهذيب ص٣٩٤.

خبيبا؛ لأني كنت أصغر من ذلك ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله[١٣٠].

وقال الحافظ ابن حجر: ذكر أبو يوسف في كتاب: «اللطائف» عن الضحاك: أن النبي ﷺ أرسل المقداد والزبير في إنزال خُبيبٍ عن خشبته، فوصلا إلى التنعيم، فوجدا حوله أربعين رجلاً، فأنزلاه، فحمله الزبير على فرسه وهو رَطْبٌ لم يتغير منه شيءٌ، فنذر به المشركون، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض، فَسُمِّيَ: بَلِيعَ الأرض[١٣١].

ويستفاد من هذه الحادثة فوائد كثيرة، وحكم عظيمة، منها: أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكّن من نفسه العدو ولو أدى ذلك إلى قتله حيًّا: حتى لا يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالعزيمة، فإن رغب في الرخصة فله أن يقع فى الأسر، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وكرهه سفيان الثوري.

ومنها: أن المؤمن يفي للمشركين بالعهد، ويتورع عن قتل أولادهم، والدعاء عليهم بالتعميم، وأنهم مع كفرهم: كانوا يعظمون الحَرم والأشهر الحُرم.

ومنها: ما كان عليه خُبيب من قوة اليقين والصلابة في الدين، والثبات على المعتقد، حيث صلى ركعتين قبل القتل، وأنشأ الشعر وأنشده.

ومنها أن الله عز وجل استجاب دعاء عاصم وأصحابِه، وأكرمهم في حياتهم وبعد استشهادهم، وأظهر ذلك للعالمين، وأنه سبحانه قد ابتلاهم كما سبق في علمه ليثيبهم ويعظم أجورهم ويرفع درجاتهم، وذلك بتمكين المشركين من قتلهم: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ

---

(١٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٣.

(١٣١) الإصابة ٢/ ٢٢٦.

مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢][١٣٢].

وبالرغم من تلاحق الخسائر بالمسلمين في (الرجيع) و(بئر معونة).. ودخول المؤمنين في محنةٍ بعد أخرى: إلا أنهم لم يفقدوا ثقتهم بربهم..ولم يقطعوا صلتهم بخالقهم، واطمئنانَهم لوعده لهم فى غدهم ومستقبل أمرهم، فشرعوا يردون الضربة بمثلها، فصبروا على ما نزل بهم من بأساء، كعاصمٍ وخبيبٍ ورفاقِهما: الذين تقلبت عليهم أصناف البلاء وألوان التعذيب، فصبروا واحتسبوا وآثروا القتل والشهادة، دون أن يرجع أحد منهم عن دينه، أو ينطق بكلمة الكفر على لسانه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

غَزوَةُ الخَندَقُ وبِدايَةُ الاستِقرَار

ثم كانت آخر الشدائد التي مرت برسول الله ﷺ وأصحابه: ما وقع في غزوة الأحزاب وهى الخندق، سنة خمس من الهجرة؛ وكانت بداية عهد الاستقرار، إذ في وقت الشدة ينبعث الأمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق] ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح].

وذلك أن المسلمين بعد أن استقروا بالمدينة؛ وأصبحت لهم فيها دولة: أيقن عدوُّهُم أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإسلام إذا حاربته كلُّ طائفةٍ على حدةٍ، فأجمعوا أمرهم واتحدوا على الرغم من اختلافهم، فقرروا رمي المسلمين عن قوسٍ واحدةٍ؛ ليستأصلوا شأفتهم ويقضوا على الإسلام قضاءً محققًا، وقد برز ذلك جليًّا في عدد الجيش الذى جاءُوا به من قريش وغطفان وغيرهما؛ حيث كان عدده نحو عشرة آلاف مقاتل، فكيف إذا انضم إلى ذلك: اليهود المتواطئون

---

(١٣٢) هذه الفوائد مقتبسة من: فتح الباري ٧/ ٣٨٤، ٣٨٥.

مع جحافل الشرك، ثم المنافقون المطلعون على أسرار المسلمين فى المدينة وما حولها!!!

فأخذ النبي ﷺ وأصحابُه يفكِّرون في دفع هذا العدوان، ويعملون على دَرْءِ ذلك الخطر الذى يتهددهم من الداخل والخارج على السواء، وصدق الله إذ يصور لنا بعض هذه المشاهد؛ ويُظْهِرُ لنا كيف أنها أسفرت عن أخلاق الرجال وكشفت عن معادنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۝١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ۝١٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ۝٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ۝٢٧﴾ [الأحزاب].

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه يقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا

بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالجُوعِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ للأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا   عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

وفي رواية أخرى يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا   عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قَالَ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُ الآخِرَهْ، فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(١٣٣).

وفي أثناء تلك الشدائد يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بمستقبل هذه الأمة وظهور ذلك الدين، أخرج الإمام أحمد: بسند حسن، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فوَضَعَ ثَوْبَهُ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»(١٣٤).

---

(١٣٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/٣٩٢ ح٤٠٩٩، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب عزوة الأحزاب وهي الخندق ٣/١٤٣١، ١٤٣٢ ح١٨٠٥.

(١٣٤) المسند ٤/٣٠٣.

وله شاهد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ(١٣٥) شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنَا نَازِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ، قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ» قَالَ: «قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ، وَلا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ» فَقَالَ ﷺ: «قُومُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: وَيْحَكِ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «ادْخُلُوا، وَلا تَضَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ ﷺ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»(١٣٦).

وهذه لمحة من الشدائد التي تعرض لها المسلمون في هذه الغزوة: فيها تعليم وتأديب للخلف بعدم الاجتراء بتمني حضور تلك المشاهد يوضحها لنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١٣٧) في الحديث الذي أخرجه مسلم (ح١٧٨٨) بسنده إلى إِبْرَاهِيمَ بنِ يَزِيدَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا

---

(١٣٥) والكُدْية: بضم الكاف وسكون المهملة هي القطعة الصلبة من الأرض لا تؤثر فيها أدوات الحفر. ينظر: عمدة القاري ١٧/١٧٩.

(١٣٦) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٧/٣٩٥.

(١٣٧) وقد سبق نموذج آخر في العهد المكي أبانه المقداد ابن الأسود في عنوان: «السابقون الذين امتُحِنوا بالفتنة والأسوة بهم في ذلك».

عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ -أي: برد-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» -أي: لا تعلمهم بنفسك، وامش في خفاء لئلا ينفروا منك ويقبلوا عليّ-، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ -أي: يدفئه-، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ: قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ» -أي: كثير النوم-.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن من طريق: مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِاللَّهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ!؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا

فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا» ، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

فأكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بأن كبت عدوهم؛ فجعل كيدهم في نحورهم دون أن يغنموا شيئًا أو يتحقق لهم هدفٌ، وامتن الله عز وجل على المؤمنين بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ إلى قوله تبارك اسمه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

كما حلت النقمة بيهود بني قريظة؛ لنقضهم العهد مع رسول الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وكان ذلك بحكم سعد بن معاذ بن النعمان: أبي عمرو الأنصاري، سيدِ الأوس، الذي شهد بدرًا باتفاق، وقد رُمِيَ بسهمٍ يوم الخندق، وعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بنى قريظة، وأُجيبت دعوته في ذلك، ثم انتقض جُرْحُه فمات شهيدًا، بعد أن شفى الله غيظه من يهود بني قريظة، وأقرَّ عينه بفشل قريش في هجومها على المدينة، وانقلابها لتُغْزَى في عُقْر دارها، لا لتغزو الآخرين(١٣٨).

وبهذا نوقن بلا ريب: أن الله عز وجل لن يترك كلمتَه لِتَخفِق ولا دينَه لِيُهان ولا أولياءَه لِيَذِلُّوا... ومَن زَعَمَ أنَّ الإسلامَ سيموت، أو أنَّ الدين سيضعُف، أو أن المسلمين سيُقضَى عليهم... فقد كذب وافترى إفكًا مبينًا، ويؤكِّدُ ذلك اليقين ما حدث للمسلمين أثناء وبعد

---

(١٣٨) ترجمة سعد بن معاذ في: الإصابة٣/ ٧٠، ٧١، والأحاديث الصحيحة كثيرة في مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نذكر واحدًا منها على سبيل المثال، أخرج الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة: «اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» فطفقَ المنافقونَ في جنازتِهِ وقالوا: ما أخفَّها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنما كانت تحمله الملائكة معهم». صحيح ابن حبان ٩/ ٨٩ ح٦٩٩٣، وأصل حديث أنس عند مسلم ٤/ ١٩١٦ ح٢٤٦٧، وأحمد ٣/ ٢٣٤ ح١٣٤٥٤، وله شواهد كثيرة من أقواها حديث جابر عند البخاري ٧/ ١٢٣ ح٣٨٠٣، ومسلم٤/ ١٩١٥، ١٩١٦ ح٢٤٦٦، وأحمد٣/ ٢٩٦، وله شواهد كثيرة تنظر على سبيل المثال في المسند ٣/ ٢٤ ح١١١٨٤عن أبي سعيد الخدرى، و٦/ ٣٢٩ عن رميثة، وصحيح ابن حبان ح٦٩٩١ عن أَسِيدِ بنِ حُضَيْر، وح٦٩٨٨، ٦٩٨٩ عن عائشة، وفيه أحاديث أخرى تنظر في: ٩/ ٨٥: ٩٠ من حديث ٦٩٨٧: ٦٩٩٦، والله أعلم.

حصارهم فى شِعب أبى طالب، وما وقع لرسول الله ﷺ أثناء وبعد هجرته من مكة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[التوبة].

وفى غزوة الأحزاب دحر الله جحافل الشرك ومَن واطأهم وعاونهم من يهود ومنافقين دون أن تُحَقَّق له غاية أو تُرفع لهم راية؛ بل جعلهم الله لمن خَلفَهم عبرةً وآية: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[الأحزاب].

فِي عَامِ خَمْسَةٍ وَشَهرِ شَوَّالَ ❁❁ جَاءَت جُمُوعُ الكُفْرِ تَطلُبُ القِتَالَ
وَذَاكَ أَنَّ قَينُقَاعَ وَالنَّضِيرْ ❁❁ مِنَ اليَهُودِ قَدْ لَقَوْا سُوءَ المَصِيرْ
فَأُخرِجُوا مِن طَيْبَةَ المُقَدَّسَة ❁❁ وَلَحِقُوا بِخَيبرَ المُنَجَّسَة
وَالمُشْرِكُونَ مِن ذَوِي الأَوْثَانِ ❁❁ يَبْغُونَ مَحوَ أَفْضَلِ الأَديَانِ
وَصَارَ خَوفُ المُسلِمِينَ لَمَّا ❁❁ جَاءَتْهُمُ الأَنبَاءُ خَوفًا جَمًّا
وَقَالَ سَلْمَانُ أَلَا تُخَنْدِقُونَ ❁❁ حَوْلَكُمُو فَشَرَّهُمْ سَتَتَّقُونَ
وَخَطَّطَ النَّبِيُّ مَوْضِعَ العَمَلْ ❁❁ وَابتَدَرُوهُ فِي ثَبَاتٍ وَعَجَلْ
وَلَو سَمِعْتَ القَوْمَ حِينَ يَعْمَلُونَ ❁❁ وَمَعَهُم سَيِّدُهُم يُرَدِّدُونَ
يَا رَبِّ لَوْلَا أَنتَ مَا اهتَدَينَا ❁❁ وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْــزِلَــنْ سَكِينَـــةً عَلَـينَـا ❁❁ وَثَبِّـــتِ الأَقْـــدَامَ إن لَاقَـيْـنَـا
وَاعـتَـرَضَـتْـهُـم كُـدْيَـةٌ فِي العَـمَـل ❁❁ وَدَكَّـهَــا مُـحَـمَّــدٌ بِالمِـعْـوَل
وَسَـطَـعَـتْ مِـنْ تَـحْـتِـهَـا الأَنْـوَار ❁❁ فَـفَـرِحُـوا وَحَـزِنَ الكُـفَّـــار
وَجَـابِــرٌ حِـينَ رَأَى عَـصْـبَ الحَجَـرْ ❁❁ جُـوعًـا عَلَى بَطْـنِ إِمَامِ البَـشَـرْ
وَكَـانَ عِـنـدَهُ قَلِيـلٌ مِـن شَـعِير ❁❁ وَمَعَـهُ فِي بَيْتِـهِ جَـدْيٌ صَغِيـرْ
وَقَـــالَ لِلـمَـــرْأَةِ لَـــوْ رَأَيْـتِ ❁❁ وَجْـهَ النَّـبِيِّ المُصْطَفَى بَكَيْتِ
وَصَنَعُـوا مَا عِـندَهُـم مِنَ الطَّعَام ❁❁ ثُـمَّ دَعَـا إِلَـيْـهِ سَيِّـدَ الأَنَـــام
وَكَـــانَ فِي قِـصَّـتِـــهِ الشَّـهِـيرَة ❁❁ مُـعـجِـــزَةٌ عَـظِـيـمَـــةٌ كَـبِـيـــرَة
وَأَقْـبَـلَـــتْ قَـبَـائِـلُ الأَحْـــزَابِ ❁❁ تُـرِيـدُ مَـا لَـمْ يَكُ فِي الحِسَـابِ
وَمِـنْ وَرَاءِ النَّـاسِ فِي المَـدِينَــةْ ❁❁ قُـرَيـظَـةُ الخَـبِـيـثَـةُ اللَّـعِـيـنَـة
وَاجْـتَـهَــدَ النَّـبِـيُّ فِي الـدُّعَـــاء ❁❁ لِجَـيْـشِـهِ الثَّـابِـتِ لِلأَعْــدَاء
وَقَـدْ هَـدَى اللهُ نُعَـيْمَ الأَشْجَعِي ❁❁ وَاعـتَـنَـقَ الإِسْلَامَ هَـذَا الأَلْـمَعِي
وَبَـاتَ يَسْعَى فِي ذَوِي الرِّيَـاسَة ❁❁ وَفَـرَّقَ الجُـمُـوعَ بِالسِّـيَـاسَـةِ
وَأَرْسَـلَ اللهُ عَـلَـيْـهِـمْ جُـنْـدَهُ ❁❁ وَنَـصَـرَ اللـهُ تَـعَـالَى عَـبـــدَهُ
وَبَـعْــدَ مَـــا تَـوَلَّـتِ الأَحْـزَابُ ❁❁ تَـفَـرَّغَ النَّـبِيُّ وَالأَصْحَـــابُ
وَقَـــالَ جِـبْـرِيـلُ الأَمِـيـنُ هَـيَّــا ❁❁ إِلَى خِـبَـاثِ الطَّـبْـعِ وَالمُحَيَّا
إِلَى بَنِي قُـرَيْـظَــةَ الـذِّيـنَـــا ❁❁ لَا يَحْـفَـظُـونَ العَـهْـدَ وَاليَـمِينَا
وَقَــامَ فِي المَـدِيـنَـــةِ المُـنَـادِي ❁❁ يَـدعُــو المُجَـاهِـدِيـنَ لِلجِـهَـادِ
يَقُـولُ صَلُّـوا العَـصْـرَ فِي دِيَـارِهِـمْ ❁❁ وَضَـايِـقُـوا اليَـهُـودَ فِي حِصَارِهِم
وَقَـد رَأَوْا مِـن سُـوءِ تِـلْـكَ الحَـالَـةْ ❁❁ أَنَّـهُـمُـو هَـلْـكَى بِـلَا مَـحَـالَــة
وَرَفَـضُــوا مَـا قَـالَـهُ الأَمِـيـــر ❁❁ وَكُـلُّـهُــم مُـنَـافِـقٌ مُـبِـيـــر
وَاسْـتَـسْـلَـمُـوا لِحُكمِ سَـعدِ بنِ مُعَاذ ❁❁ وَلَا مَــفَــرَّ دُونَـــهُ وَلَا مَـــلَاذ
وَحَـكَــمَ الأَوْسِـيُّ حُـكْـمًـا عَـدْلا ❁❁ بِـأَن يُـبَـادَ البَـالِـغُـونَ قَـتْـلا
وَالسَّـبْـيُ لِلـنِّـسَــاءِ وَالـــذَّرَارِي ❁❁ وَنَـفَّـذَ الحُـكْـمَ بِـأَمـرِ البَـارِي

قد اتضح مما سبق: أن غزوة الأحزاب كانت أَول بشائرِ الفتحِ وبدايةَ عهدٍ متميزٍ في تاريخ المسلمين حيث قال ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»(١٣٩).

ومن ثَمَّ بدأ ﷺ بالأسلوب العملي لنشر الإسلام وتأمين سبله داخل الجزيرة العربية وخارجها، وأبان للدنيا كلها أنه ﷺ يريد قدرًا من السلام وقسطًا من القوة، ليؤمِّن به الدعاة الذين يبلغون الناس دين الله على وجهه الصحيح؛ ويحميَهم من بغى المعتدين: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود].

وذلك واضح فى قبوله ﷺ لشروط صلح الحديبية التى اعتبرها بعض أصحابه شروطًا مجحفة؛ لكنهم أيقنوا بعد ذلك بحكمة العليم الخبير الذى قدر الأمور ودبرها أحسن تدبير، قال جل فى علاه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

كما تتضح الصورة أكثر جلاءً فى الكتب التى بعث بها ﷺ إلى الملوك والأمراء فى أقطار الأرض، وفى البعوث والغزوات التى بلغت تخوم الشام وأطرافه، مثل مؤتة وذات السلاسل وتبوك وفلسطين.

وفيما يلى عرض لبعض أحداث العام السادس وما بعده إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى فى

---

(١٣٩) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٤٠٥/٧ من حديث سليمان بن صرر، وله شاهد عند البزار من حديث جابر بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب – وقد جمعوا له جموعًا كثيرة -: «لا يغزوكم بعدها أبدًا، ولكن تغزوهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المغازي/ غزوة الخندق وقريظة ١٣٩/٦: رواه البزار ورجاله ثقات، لكن الحافظ ابن حجر حَسَّنَ إسناده، ينظر فتح الباري ٤٠٥/٧.

شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة.

فبعد غزوة الخندق بنحو أربعة أشهر: قاد النبي ﷺ طائفة من أصحابه وغزا بهم بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع وقتلوا خُبيبًا وأصحابه، ووصل النبي ﷺ بأصحابه إلى عُسْفَان[١٤٠] التي تبعد عدة أميال عن مكة، ثم بعث أبا بكر الصديق على رأس جماعة من الصحابة إلى كُرَاع[١٤١] الغَميم وهي أيضًا تبعد عدة أميال عن مكة.

- وفى العودة من غزوة بنى المُصْطَلِق التى وقعت سنة ست من الهجرة نرى موقفًا حدث بين عبدِالله بن أُبَيِّ ابن سلول، رأس النفاق وزعيم المنافقين فى المدينة، وبين ابنه عبدِالله الصحابى البار، يرويها جابر بن عبدالله فيقول: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ- ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه- فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَالِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَالِلأَنْصَارِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ- أى: اتركوا هذه الكلمة فإنها قبيحة ومن أخلاق الجاهلية- فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ، فَقَالَ: أَوَقَدْ فَعَلُوهَا؟ وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ! لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَبْدِاللَّهِ: وَاللَّهِ لا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ،

---

(١٤٠) قال ياقوت: غزا النبي ﷺ بني لِحْيان بعُسْفان، وقد مضى لهجرته خمس سنين وشهران وأحد عشر يومًا، معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢.

(١٤١) (كُراع): بضم الكاف آخره مهملة، (الغَميم): بفتح المعجمة؛ موضع بناحية الحجاز، وادي أمام عسفان بثمانية أميال، المصدر السابق ٤/٤٤٣.

فَفَعَلَ. أخرجه الترمذى وصححه(١٤٢).

فعبدُالله بنُ عبدِالله بنِ أُبَيٍّ كان بَارًّا بأبيه هيابًا له، لكن مصلحة العقيدة هى المعتبرة عنده أولاً، فلما رأى أباه يؤذى رسول الله ﷺ والمسلمين معه: عرض على النبى ﷺ أن يقتلَه ويأتيَه برأسه قائلاً: يا رسول الله! وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ: لَئِنْ شِئْتَ لَآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَه». أخرجه ابن حبان والبزار من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١٤٣).

وقبل أن يستدير العام بعد غزوة الأحزاب: عقد النبي ﷺ مع زعماء قريش صلح الحديبية الذي كان أعظم فتح في سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل كان فتح مكة أحد ثمار ذلك الصلح ونتائجه، ودخل في الإسلام في أقل من عامين أضعاف أضعاف من دخلوا فيه من أول البعثة إلى ذلك الصلح.

صُلْحُ الحُدَيبِيَةَ فِيهِ البَرَكَةْ ❁❁ لِلمُسْلِمِينَ وَلِتِلْكَ الحَرَكَهْ
تَفَرَّغُوا مِنْ حَرْبِ هَــؤُلاءِ ❁❁ لِحَرْبِ غَيرِهِم مِنَ الأَعْدَاءِ
وَاسْتُؤمِنَتْ قُرَيشٌ فِي بِلَادِهَا ❁❁ وَوَضَعُوا الأَسْيَافَ فِي أَغْمَادِهَا
وَأَصْبَحَت طَيْبَةُ مُستَعِدَّهْ ❁❁ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ تِلْكَ المُدَّهْ

---

(١٤٢) الترمذى فى جامعه ٣٨٩/٥ ح٣٣١٥ وقال: حديث حسن صحيح، والحميدى فى مسنده ٥١٩/٢، ٥٢٠ ح١٢٣٩، ١٢٤٠.

(١٤٣) حديث حسن، أخرجه ابن وهب فى جامعه قال: وَأَخْبَرَنِي شَبِيبُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلٍّ...» الحديث. ١٨٢/١ ح١١٤، وشيخ ابن وهب هو: شبيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد التميمي، قال ابن عدي: «حَدَّث عنه ابن وهب بالمناكير... ثم قال: وأرجو أن لا يتعمد الكذب». الكامل في الضعفاء ١٣٤٦/٤، وشيخه محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى: صدوق حسن الحديث، وثقه بعضهم، وصحح له الترمذى.

ثم واصل النبي ﷺ تبليغ دعوة الإسلام إلى ملوك وأمراء الأرض في ذلك الزمان، فما ترك ملكًا ولا أميرًا، داخل الجزيرة وخارجها: إلا أرسل إليه الكتاب تلو الكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، ويحمله تبعة رعيته إذا أعرض وأبى.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ»[١٤٤] يعني عامة الناس الخاضعين له.

فمضت رسل النبي ﷺ تحمل الكتب إلى الأمراء المعينين من قبل الدولة التي يتبعونها، حيث كانت الفرس تحتل أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، فضلاً عن ملك الدولتين الكبيرتين الفرس والروم، والأقاليم التابعة لكل منهما، إذ كانت الرومان تسيطر في ذلك الوقت على أوروبا وأجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا، وكانت الفرس تسيطر على معظم قارة آسيا، إذًا فالمهمة كبيرة، والمسئولية ضخمة، ولكن من لها إلا محمد رسول الله ﷺ والذين معه.

- ولقد مضت الرسل في أمان تؤدي مهمتها، وتبين دين الله لكل من له عقل ولب دون أن يتعرض لهم أحد بأذى؛ لأنهم يحملون رسالة تقتضي ردًا وجوابًا، فكان هذا بمثابة عقد أمان لحاملها مدة مجيئه ورجوعه، حتى إنه يحرم قتله ولو نطق بكلمة الكفر، ففى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: «فَمَا تَقُولانِ أَنْتُمَا» قَالا: نَقُولُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[١٤٥].

---

(١٤٤) ينظر صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وباب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ٣/١٣٩٣ : ١٣٩٧.

(١٤٥) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه الإمام أحمد ح٣٦٤٢، و٣٧٠٨، و٣٧٦١، و٣٨٣٧، و٣٨٥١، و٣٨٥٥ من طرق إلى عبدالله

وسنذكر بعدُ نموذجين أحدِهما لملك عربى معين من قبل الدولة الرومانية، والآخر لهرقل نفسه؛ وذلك فى معرض الحديث عن غزوتى مؤتة وتبوك.

هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم

ظلت مشروعية الهجرة إلى رسول الله ﷺ فى مدينته واجبةً على كل مسلم ومسلمةٍ، حتى فُتِحَت مكةُ فى رمضان من العام الثامن للهجرة، وفى تلك الفترة وقعت هجرات من كثيرين من الصحابة لها دلالاتها وفوائدها، نذكر منها نموذجًا واحدًا لصحابيٍ جليلٍ، كان قبل إسلامه حربًا على الإسلام وأهله، وكان أحد سفراء قريش إلى النجاشى لاسترداد المسلمين المهاجرين إلى مكة، لكن محاولاتهم تلك لم تُفلِحْ، ودونك بعضَ حديثِه عن نفسِه كما أخرجه أئمةُ الحديثِ والسِّيَرِ فى مصنفاتهم:

فقد روى ابن إسحاق بسند حسن، ومن طريقه الإمام أحمد فى المسند واللفظ له مِنْ حَدِيثِ حبيب بن أبى أوس الثقفى، قال: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ(١٤٦) عَنِ الْخَنْدَقِ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا يَرَوْنَ مَكَانِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَنَكُونَ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا،

بن مسعود، وفى ٣/٤٨٧، ٤٨٨ ح١٥٩٨٩ عن نعيم بن مسعود الأشجعى، واللفظ له، وينظر: سنن أبي داود ح٢٧٦١، ٢٧٦٢.

(١٤٦) أنقل فى هذا الهامش وما بعده بعض التتمات من رواية الواقدى: وهو مع ضعفه فى الحديث؛ إمام فى السير لايُستغنى عنه، وقد سبقت ترجمته الجزء الأول الهامش رقم:١٠١.

روى الواقدى: عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: قال عمرو بن العاص: كنتُ للإسلام مجانبًا معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوتُ، ثم حضرتُ أُحُدًا فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق فقلتُ فى نفسى: كم أُوضِع؟ والله ليظهرن محمد على قريش.

كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عُرِفُوا، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: فَاجْمَعُوا لَهُ مَا نُهْدِي لَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الْأَدَمُ، فَجَمَعْنَا لَهُ أُدْمًا كَثِيرًا، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ، فَوَاللهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ(١٤٧)، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيهِ، فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أُدْمًا كَثِيرًا، قَالَ: ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا، فَأَعْطِنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوِ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَهُ، فَقَالَ: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَكَذَاكَ هُوَ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، أَطِعْنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَبَايِعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي(١٤٨).

---

(١٤٧) فى رواية الواقدى: وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان.

(١٤٨) فى رواية الواقدى: .. وفارقتهم كأنى أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شُحِنت تُدفَع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشُّعيْبة – على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر قرب جدة –، وخرجت من الشُّعيبة

ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِأُسْلِمَ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدِ اسْتَقَامَ الْمَنْسِمُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٌّ، أَذْهَبُ وَاللهِ أُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ مَا جِئْتُ إِلَّا لِأُسْلِمَ، قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(١٤٩)، فَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ، ثُمَّ دَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، وَلَا أَذْكُرُ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا» قَالَ: فَبَايَعْتُهُ ثُمَّ انْصَرَفْتُ(١٥٠).

قال الواقدى: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ الحارث بن هشام، قال: سمعت

ومعى نفقه، فابتعت بعيرًا وخرجت أُريد المدينة حتى خرجت على مر الظهران – جنوب الجموم على الطريق من مكة إلى المدينة، ثم مضيتُ حتى كنت بالهَدَّة، إذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يُريدان منزلاً، وأحدهما داخل فى خيمة، والآخر قائم يُمسك الراحلتين، فنظرتُ فإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم، قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت محمدًا وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بى فنزلنا جميعًا فى المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة.

(١٤٩) فى رواية الواقدى: فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبى عِنَبَة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد، ثم ولى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه يُبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننتُ، وأنخنا بالحَرَّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودى بالعصر فانطلقنا جميعًا حتى طلعنا عليه صلوات الله عليه، وإن لِوَجْهِهِ تهللاً، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا.

(١٥٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦: ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد ٤/١٩٨، ١٩٩ ح١٧٧٧٧، ودلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٤٦: ٣٤٨، وفى رواية الواقدى: إِنَّ عَمْرًا، وخالدًا، وعثمانَ بن طلحة، قدموا المدينة لهلال صفر سنة ثمان. المغازى للواقدى: ٢/٧٤١: ٧٤٥ ط الثالثة عالم الكتب – بيروت ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م، ومن طريق الواقدى أخرجها البيهقى فى دلائل النبوة ٤/٣٤٣: ٣٤٦، وانظر الخرائط أرقام: ٣٥، ٤١، ٥٤ فى كتاب: أطلس تاريخ الإسلام، وراجع ما سبق تحت عنوان: «بَيتُ أَبِى سَلَمةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» إذ فيه أن عثمان بن أبى طلحة ، هو الذى صحب أم سلمة إلى المدينة.

أبى يُحَدّثُ يَقُولُ: قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ بِي مِنْ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي، وَقُلْت: قَدْ شَهِدْت هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلّهَا عَلَى مُحَمّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إلّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنّي مُوضَعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ وَأَنّ مُحَمّدًا سَيَظْهَرُ، فَلَمّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْحُدَيْبِيَةِ خَرَجْت فِي خَيْلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَلَقِيت رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ بعُسْفان، فقمت بإزاءه وَتَعَرّضْت لَهُ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ الظّهْرَ آمِنًا مِنّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغِيرَ عَلَيْهِ، ثُمّ لَمْ يَعْزِمْ لَنَا- وَكَانَتْ فِيهِ خِيرَةٌ- فَاطّلَعَ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْ الْهُمُومِ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنّي مَوْقِعًا وَقُلْت: الرّجُلُ مَمْنُوعٌ! وَافْتَرَقْنَا وَعَدَلَ عَنْ سَنَنِ خَيْلِنَا وَأَخَذَ ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمّا صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْحُدَيْبِيَةِ وَدَافَعَتْهُ قُرَيْشٌ بِالرّوَاحِ قُلْت فِي نَفْسِي: أَيّ شَيْءٍ بَقِيَ؟ أَيْنَ الْمَذْهَبُ إلَى النّجَاشِيّ؟ فَقَدْ اتّبَعَ مُحَمّدًا، وَأَصْحَابُهُ آمِنُونَ عِنْدَهُ، فَأَخْرُجُ إلَى هِرَقْلَ؟ فَأَخْرُجُ مِنْ دِينِي إلَى نَصْرَانِيّةٍ أَوْ يَهُودِيّةٍ، فَأُقِيمُ مَعَ عَجَمٍ تَابِعًا، أَوْ أُقِيمُ فِي دَارِي فِيمَنْ بَقِيَ؟ فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَتَغَيّبْت فَلَمْ أشهد دخوله، وَكَانَ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ دَخَلَ مَعَ النّبِيّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَكَتَبَ إلَيّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، أَمّا بَعْدُ: فَإِنّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِك عَنْ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلُك عَقْلُك! وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ جَهِلَهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْك فَقَالَ: «أَيْنَ خَالِدٌ؟» فَقُلْت: يَأْتِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ: «مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ! وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجَدّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ». فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا فَاتَك، فَقَدْ فَاتَتْك مَوَاطِنُ صَالِحَةٌ، قَالَ: فَلَمّا جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشِطْت لِلْخُرُوجِ، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَسَرّنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ خَالِدٌ: وَأَرَى فِي النّوْمِ كَأَنّي فِي بِلَادٍ ضَيّقَةٍ جَدِيبَةٍ، فَخَرَجْت إلَى بَلَدٍ أَخْضَرَ وَاسِعٍ، فَقُلْت إنّ هَذِهِ لَرُؤْيَا. فَلَمّا قَدِمْت الْمَدِينَةَ قُلْت: لَأَذْكُرَنّهَا لِأَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَذَكَرْتهَا فَقَالَ: هُوَ مَخْرَجُك الّذِي هَدَاك اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَالضّيقِ الّذِي كُنْت فِيهِ مِنْ الشّرْكِ. فَلَمّا أَجْمَعْت الْخُرُوجَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْت: مَنْ

أُصَاحِبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ؟ فَلَقِيتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ فَقُلْت: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَمَّا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ إِنَّمَا نَحْنُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ فَاتَّبَعْنَاهُ فَإِنَّ شَرَفَ مُحَمَّدٍ لَنَا شَرَفٌ، فَأَبَى أَشَدَّ الْإِبَاءِ وَقَالَ: لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا اتَّبَعْته أَبَدًا، فَافْتَرَقْنَا وَقُلْت: هَذَا رَجُلٌ مَوْتُورٌ يَطْلُبُ وِتْرًا، قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ بِبَدْرٍ، فَلَقِيت عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فَقُلْت لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْت لِصَفْوَانَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ صَفْوَانُ، قُلْت: فَاطْوِ مَا ذَكَرْتُ لَك، قَالَ: لَا أَذْكُرُهُ وَخَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي تَخْرُجُ إِلَيَّ، فَخَرَجْت بِهَا إِلَى أَنْ أَلْقَى عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَقُلْت: إِنَّ هَذَا لِي لَصَدِيقٌ وَلَوْ ذَكَرْت لَهُ مَا أُرِيدُ! ثُمَّ ذَكَرْت مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ فَكَرِهْت أُذَكِّرُهُ، ثُمَّ قُلْت: وَمَا عَلَيَّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي، فَذَكَرْت لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ فَقُلْت: إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ، لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ ذَنُوبٌ مِنْ مَاءٍ لَخَرَجَ، قَالَ: وَقُلْت لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْت لِصَاحِبَيْهِ، فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَقَالَ: لَقَدْ غَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُوَ، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفَخٍّ مُنَاخَةٌ، قَالَ: فَاتَّعَدْت أَنَا وَهُوَ بِيَأْجَجَ، إِنْ سَبَقَنِي أَقَامَ وَإِنْ سَبَقْته أَقَمْت عَلَيْهِ. قَالَ: فَأَدْلَجْنَا سَحَرًا فَلَمْ يَطْلُعْ الْفَجْرُ حَتَّى الْتَقَيْنَا بِيَأْجَجَ، فَغَدَوْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْهَدَّةِ، فَنَجِد عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ بِهَا فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ! فَقُلْنَا: وَبِك! قَالَ: أَيْنَ مَسِيرُكُمْ؟ قُلْنَا مَا أَخْرَجَك؟ قَالَ: فَمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمْ؟ قُلْنَا: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي، قَالَ: فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَأَنَخْنَا بِظَاهِرِ الْحَرَّةِ رِكَابَنَا، فَأُخْبِرَ بِنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسُرَّ بِنَا، فَلَبِسْت مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمِدْت إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَقِيَنِي أَخِي فَقَالَ: أَسْرِعْ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِك فَسُرَّ بِقُدُومِك وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ، فَأَسْرَعْت الْمَشْيَ فَطَلَعْت عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْت عَلَيْهِ، فَسَلَّمْت عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْت: إِنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَاك! قَدْ كُنْت أَرَى لَك عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَك إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ»، قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْك مُعَانِدًا عَنْ الْحَقِّ، فَادْعُ اللهَ

أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الإسلامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ» قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اللهُمّ اغْفِرْ لِخَالِدٍ كُلّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدّ عَنْ سَبِيلِك» قَالَ خَالِدٌ: وَتَقَدّمَ عَمْرٌو، وَعُثْمَانُ، فَبَايَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ قُدُومُنَا فى صفر سنة ثمان، فوالله مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِ أَسْلَمْتُ يَعْدِلُ بِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ(١٥١).

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه واللفظ له من حديث عبدِالرحمنِ بنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ

(١٥١) المغازى للواقدى ٢/٧٤٥: ٧٤٩، وهو يتقوى بما قبله وبما بعده.

بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي(١٥٢).

وهكذا كان عمرو بن العاص داهية العرب رأيًا وعقلاً ولسانًا، ومع ذلك تأخر إسلامه أكثر من عشرين سنة من بعثة النبى ﷺ، ولما أسلم كان النبى ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، وولاه غزاة ذات السلاسل، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعبُ – أى: أدفع – لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(١٥٣).

ومن مناقب عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أيضًا – أن رسول الله ﷺ استعمله على عُمان، فمات ﷺ وعمْرو أميرُها، ثم كان من أُمراء الأجناد فى الجهاد بالشام فى زمن عمر، وهو الذى افتتح قنّسرين، وصالحَ أهل حلب ومنْبِج وأنطاكية، وولاه عُمر فلسطين، وقد وَلِيَ مصر عشر سنين وثلاثة أشهر: أربعة من قِبَلِ عمر، وأربعة من قِبَلِ عثمان، وسنتين وثلاثة أشهر من قِبَلِ معاوية، ولما حضرته الوفاة قال لابنه عبدالله: ائتنى بجامعة – رباط من قماش – فَشُدَّ بها يَدَىَّ إلى عنقى، ففعل، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللّهم إنك أمرتنى فعصيتُ، ونهيتنى فتجاوزتُ، ولستُ عزيزًا

(١٥٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١/١١٢، ١١٣ ح١٢١، ومسند الإمام أحمد ٤/٢٠٥ ح١٧٨٢٧ مختصرًا.

(١٥٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٩٧ ح١٧٧٦٣ واللفظ له، وفى ٤/٢٠٢، ٢٠٣ ح١٧٨٠٢ بنحوه، وقد أسهب الشيخ شعيب فى تخريجه، فليراجعه من أحب.

فأنتصر، ولا بريئًا فأعتذر، ولكنى أشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، ثم وضع إصبعه فى فمه كالمتفكر المتندم حتى مات سنة ٤٣ من الهجرة، عن عُمْرٍ يناهز التسعين عامًا، فرحمه الله وغفر له، وزاد فى إحسانه، وتجاوز عن سيئاته، فإنه من صحابة رسول الله ﷺ(١٥٤).

غَزْوَةُ مُؤْتَة

وكذلك كان خالد بن الوليد؛ سيف الله الذى فتح الله للمسلمين على يديه ونصرهم، حيث بَعث النبى ﷺ فى شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة: كتابًا إلى أمير بصرى(١٥٥) بأرض الشام مع الحارث بن عمير الأزدي، فاعترضه فى طريق عودته شرحبيل بن عمرو الغساني بمؤتة من بلاد الأردن، وسأله: أأنت من رسل محمد؟ قال نعم، فأوثق رباطه وقتله صبرًا(١٥٦) متناسيًا تلك المُسَلَّمة البدهية التي لا نقاش فيها: وهى أن الرسل لا تقتل، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فترامت تلك الأخبار إلى النبى ﷺ والمسلمين بالمدينة، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس، فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف(١٥٧) ولم يبين الأمر، فلما صلى الظهر جلس فى أصحابه وقال ﷺ: «زيدُ بنُ حارثةَ أميرُ الناسِ، فإنْ قُتِلَ زَيْدٌ: فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ: فَعَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فإن أصيب عبدالله بن رواحة فَلْيرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم» وعقد لواءًا أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فودع الناس الأمراء، وخرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف، وجعل المسلمون ينادون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى

---

(١٥٤) ينظر: الإصابة ٥٣٧/٤: ٥٤١، وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لأستاذنا الدكتور: موسى شاهين لاشين رحمه الله ١٠٧/٢: ١١٠.

(١٥٥) (بُصرَى): مدينة بها كثير من الآثار الرومانية والإسلامية جنوب شرق دمشق، بينهما نحو ١٤٠كم.

(١٥٦) أي حبسًا من غير طعام ولا شراب حتى مات، القاموس المحيط ٦٨/٢.

(١٥٧) (الجُرْف): مكان واسع يجتمع فيه الجيش، ويقع فى شمال المدينة دون جبل أحد. أطلس تاريخ الإسلام ص٦٦.

ثنية الوداع شمال غرب المدينة... وأمرهم أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير(١٥٨).

فمضى الجيش إلى مؤته؛ لزلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان، وإعادة هيبة الدولة الفتية أمام تلك الأمبراطورية، وكان عدد الجيش كبيرًا بالنسبة للمسلمين؛ لكنه لقي من الروم نحو مائة ألف، ومثلهم من العرب الموالين لهم، فكان الارتداد المأمون أفضل من النصر.

وهؤلاء القادة الثلاثة: كلهم فى سن الشباب، وقد أخبرهم رسول الله ﷺ بمصرعهم دون أن يَفُت ذلك فى عضدهم وحماسهم لنيل الشهادة، وانطلق الجيش تحت إمرة زيد بن حارثة الذى استشهد فى هذه الغزوة مقبلاً غير مدبرٍ، وهو ابنُ بضعٍ وثلاثين سنة(١٥٩).

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام؛ إلا أن أخباره سبقته إلى الروم، ولابد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقاتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف، فلما وصل المسلمون إلى معان– مدينة فى جنوب الأردن– عرفوا أن فى انتظارهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب.

والهجوم على جيشٍ تلك عُدته مجازفة مُخيفةٌ، فأقام المسلمون ليلتين بمعان يتدبرون أمرهم، وقال نفر منهم: نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالرجوع إليه، ولم يرق ذلك لعبدالله بن رواحة فشجع الناس قائلاً: يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون– الشهادة!– وما نقاتل الناس بِعُدَدٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم

---

(١٥٨) ينظر فى ذلك؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٧/ ٥١٠ ح٤٢٦١، وإمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٣٤٤: ٣٤٧.

(١٥٩) راجع : ما تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي».

إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلِقوا، والله! لقد رأيُتنا يوم بدر ما معنا إلا فَرَسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد! فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلفٌ؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان، فشجع الناس وزحفوا شمالاً إلى مؤتة، فالتقوا بعدوهم ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح، قال أبو هريرة: وقد شهدت ذلك فبرق بصرى، فقال لى ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة! مالك؟ كأنك ترى جموعًا كثيرة؟ قلت: نعم! قال: لم تشهدنا ببدر، إنا لم ننصر بالكثرة.

وقاتل الأمراءُ يومئذ على أرجلهم: واللواء بيد قائدهم زيد بن حارثة، فقاتل، وقاتل الناس معه؛ حتى قُتِل طعنًا بالرماح فكان أول شهيدٍ.

ثم أخذ اللواء القائد الثانى؛ جعفر بن أبى طالب الهاشمى؛ ذو الجناحين، وصاحب الهجرتين، الذى أسلم النجاشىُّ ومن تبعه على يديه، فنزل عن فرسه فقطع عرقوبها فكانت أول فرس عقرت فى الإسلام، وهذا مشروع عند اشتداد الحرب؛ كى لا تكون عائقًا له، وحتى لا يظفر بها العدو فيستعينَ بها على المسلمين.

ثم أقبل على الروم يجالدهم بعنف، وهو يُنشد:

يَا حَبـذَّا الجنَّـة واقـترَابُـهَا! ۞۞۞ طَيِّـبَـةً، بَـاردًا شَـرابُـهَـا!

وَالـرُّومُ رومٌ قَد دَّنَا عـذَابُـهَا ۞۞۞ كَـافِرة بَعيدةً أَنسَـابُـهَـا!

عَلَىَّ إِنْ لاَقَيتُهَا ضِرَابُهَا

وظل يقاتلهم حتى قُتِل وبه أكثر من تسعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فيما بين منكبيه مِن قِبَل يديه، كان قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد وهو ابن بضع وثلاثين سنة؛ فهو يطير فى الجنة بجناحيه.

يقول عبدالله بن عمر؛ وهو أحد فرسان تلك المعركة، وكان شاهد عيان: الْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي القَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، ليس شيء

منها فى دبره، يعنى فى ظهره، وكان إذا سلم على أحد أبناء جعفر يقول له: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين(١٦٠).

ثم تلقف اللواء القائد الثالث عبدالله بن رواحة؛ الخزرجى الأنصارى، الذى كان أحد النقباء فى بيعة العقبة، فجاءه ابن عم له بقطعة لحم قائلاً: شد بها صلبك؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فما كاد يقطع منها مضغة؛ حتى سمع الحطمة فى ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب، فقال لنفسه: وأنت فى الدنيا؟! ورمى بالطعام، ثم انتضى سيفه وهو يقول:

يَا نفسُ إنْ لم تُقتَلِى تَموتِى! ❁❁❁ هَذا حِمَامُ الموتِ قد صُلِيتِ!

ومَا تَمنيتِ فقد أُعطِيتِ! ❁❁❁ إنْ تَفعلِى فِعلَهُمَا هُدِيتِ!

وتقدَّمَ فقاتل حتى قُتل.

ثم أخذ اللواء الذى تداولته أيدى الأمراء الثلاثة: ثابت بن أقرم، وصاح: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فلما نظر إلى خالد بن الوليد؛ قال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: أنت أحق به، أنت رجل لك سِنٌّ؛ وقد شهدتَّ بدرًا، قال ثابت: خذه أيها الرجل، والله! ما أخذته إلا لك، وذلك الموقف من ثابت بن أقرم ليس تخوفًا من الموت ولا نكوصًا على الأعقاب، وإنما هو شعور منه بوجود الأكفأ فى القيادة، فهو قد حمل الراية؛ حتى لا تسقط.

فأخذ خالد بن الوليد اللواء، وشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا الموقف المتضايق؛ فإن الانسحاب بأقل الخسائر هو الأفضل فى تلك المعركة غير المتكافئة، ومما يدل على بسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى تلك الغزوة؛ قوله المدون فى الصحيح: لَقَدْ دُقَّ – أي كُسِر – فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِي يَدِي صَفِيحَةٌ لِي يَمَانِيَةٌ(١٦١).

---

(١٦٠) صحيح البخارى ٧/٧٥، ٥١٠، ٥١٥ ح٣٧٠٩، ٤٢٦٠، ٤٢٦١، ٤٢٦٤.

(١٦١) صحيح البخارى ٧/٥١٥ ح٤٢٦٥، ٤٢٦٦.

وكان استشهاد عبدالله بن رواحة فى آخر النهار، ثم دخل الليل وخالد أمير الجيش يبلى بهم أحسن البلاء وينكل بالعدو أشد التنكيل؛ حتى حجز الظلام بين المتحاربين، فكانت هدنةً مؤقتة، فلما أسفر الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة، فجعل المقدمة ساقه، والميمنة ميسرة.

وجعل هدفه مناوشة الرومان، بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت خطته فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه، وإنقاذ سمعة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدولة الكبرى.

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم انكشفت، وولت مهزومة.

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود- واللفظ له- من حديث عوف بن مالك الأشجعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، فَرَافَقَنِى مَدَدِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ، فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَزُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدَدِيُّ طَائِفَةً مِنْ جِلْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ عَلَيْهِ سَرْجٌ مُذْهَبٌ وَسِلَاحٌ مُذْهَبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِيُّ يُغْرِى بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمَدَدِيُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِيُّ فَعَرْقَبَ فَرَسَهُ فَخَرَّ وَعَلَاهُ فَقَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَخَذَ مِنَ السَّلَبِ، قَالَ عَوْفٌ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّى اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ لأُعَرِّفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، قَالَ عَوْفٌ: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِيِّ وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!

اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ». الحديث بطوله(١٦٢).

وفيه: أن المسلمين غنموا من الروم، وألحقوا بهم خسائر فادحة، فعلى أى شيء تكسرت الأسياف التسعة فى يد خالد؟! ثم ماذا صنع بالصفيحة اليمانية التى بقيت فى يده؟! ثم ماذا فعل أبو قتادة وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما من فرسان رسول الله ﷺ.

نعم: كانت هناك طائفة لاذت بالفرار لما رأت جموع الروم المحتشدة ولا حرج عليها فى ذلك؛ لأن الواحد منهم يقابله عشرات الأضعاف من الأعداد، يقول عبدالله بن عمر: لقينا العدو، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، واكتفى خالد بهذا النصر، وآثر الانحياز إلى النبى ﷺ الذى هو فئة كل مسلم، ورجع بالجيش إلى المدينة؛ فلم يكونوا فُرَّارًا، وإنما كانوا هم الكُرَّار(١٦٣).

وفى هذه الغزوة: آيةٌ باهرة، وعلم من أعلام النبوة الظاهرة، ومعجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر الناسَ بوقائعها ساعة حدوثها؛ وهو على المنبر يخطب، فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ» قال أنس: وَعَيْنَاهُ ﷺ تَذْرِفَانِ، ثم قال ﷺ: «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»(١٦٤).

كما أن عدد الشهداء فيها كان اثنى عشر رجلاً على أكثر تقدير؛ أربعة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار.

---

(١٦٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير/ باب استحقاق القاتل سَلَب القتيل ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية رقم ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٦/٢٧، ٢٨، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب فى الإمام يمنع القاتل السلب ٣/١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩.

(١٦٣) راجع فى تفاصيل تلك الغزوة وما حصل فيها من غنائم: سنن أبى داود ٣/٦٢، ٧٣ ح٢٥٧٣، و٣/١٠٦، ١٠٧ ح٢٦٤٧، و٣/١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩، وأصله فى مسلم ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٢/١٠٠ ح٥٧٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٣: ٣٨٩، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٥٥: ٤٩١، وإمتاع الأسماع للمقريزى١/٣٤٤: ٣٥٢، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٠٩: ٤١٤.

(١٦٤) صحيح البخارى ٣/١٦٦ ح١٢٤٦، و٦/١٦ ح٢٧٩٨، و٦/١٨٠ ح٣٠٦٣، و٧/١٠١ ح٣٧٥٧، و٧/٥١٢ ح٤٢٦٢.

قال ابن كثير: وهذا عظيم جدًا؛ أن يتقابل جيشان متعاديان فى الدين، أحدهما: هو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل.. يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله: لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتِلَ من المشركين خلق كثير(١٦٥).

فِي السَّنَـةِ الثَّامِنَةِ الهِجْرِيَّة ❁❁ بُورِكَـتِ الغَـزْوَةُ وَالسَّرِيَّـة
وَكَمْ أَتَى فِيهَا مِنَ الفَتْحِ المُبِينْ ❁❁ وَالانْتِصَارِ لِجُيُوشِ المُسْلِمِينْ
إِلَّا الـذِي أَصَـابَ أَهْـلَ اللهِ ❁❁ زَيْـدًا وَجَـعْـفَـرًا وَعَبْـدَاللهِ
فِيمَا جَرَى عَلَى حُدُودِ الشَّامِ ❁❁ يَـومَ لِـقَـاءِ الـعُرْبِ وَالأَرْوَامِ
وَإِنَّ خَـالِـدًا لَـسَيْـفُ اللهِ ❁❁ سَـمَّـاهُ إِذ ذَّاكَ رَسُـولُ اللهِ
وَأَحْسَـنَ التَّـدبِيـرَ فِي الكِفَاحِ ❁❁ كَـبْـشُ بَنِي مَخْزُومٍ لِلنِّطَاحِ

غزوةُ ذاتِ السَّلاسِل

وقعت هذه الغزوة فى جمادى الآخرة سنة ثمان فى قول الجمهور، وكان أميرهم فيها عمرو بن العاص، وأَمَرَه رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى مشارف الشام؛ حيث بلاد أخوال أبيه: العاص بن وائل السهمى؛ من بلى ومن يليهم من قضاعة ليتألفهم ويدعوهم إلى الإسلام، فلما وصل إلى ماء يقال له السلاسل؛ خاف غدر تلك القبائل الضارية، فبعث إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد، فبعث إليه بطائفة من المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر تحت قيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح، وعهد إليه: إذا لقيت صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، فلما قدموا على عمروٍ، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك؛ وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فلما رأى ذلك أبو عبيدة؛ وكان رجلاً حسن الخلق، لين الشيمة، قال:

(١٦٥) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٨٩.

إن عصيتنى لأطيعنك، فسلم إليه الإمارة، وصلى عمرو بالناس.

وليس معنى ذلك أن عَمْرًا أفضل من أبى بكر وعُمَر وأبى عبيدة وغيرهم من السابقين الأولين إلى الإسلام والهجرة؛ بل لأنه أيقظ عينًا، وأبصر بالحرب، ولقد غضب عمر حين أمرهم عمرو بن العاص ألا ينوروا نارًا بالليل، فأخبره أبو بكر: أن رسول الله ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، ثم سار عمرو بالجيش؛ وقد بلغوا خمسمائة رجل، يواصلون الليل بالنهار فى السير، فكلما انتهى عمرو إلى موضع؛ قيل له: كان هنا جمعٌ فلما سمعوا بك تفرقوا، ولقى فى آخر ذلك على مشارف الشام جمعًا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، ثم حمل المسلمون عليهم فهربوا وتفرقوا فى البلاد، ودوخ عَمْرُو مَن هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون، وقد انزاح بهذا غبارٌ كثيرٌ عن سمعة المسلمين فى تلك البلاد(١٦٦)، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

وفى طريق عودته وقعت حادثة لعمرو بن العاص تدل على حُسن فَهمه وجميل اجتهاده وعظيم فقهه... فى مقاصد الشريعة وتأويل نصوصها، وأقره النبى ﷺ على ذلك، فأخرج أبو داود وغيره بسند صحيح إلى عمرو بن العاص قال: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ: فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الاغْتِسَالِ، وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا(١٦٧).

---

(١٦٦) تُراجع روايات تلك الغزوة عند الإمام البيهقى فى دلائل النبوة ٣٩٧/٤: ٤٠١.

(١٦٧) سنن أبى داود: كتاب الطهارة/ باب إذا خاف الجنب البرد: أيتيمم؟ ٢٣٨/١ ح٣٣٤، ومن طريقه البيهقى فى

الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ

وهكذا شُغل المسلمون بعد صلح الحديبية بنشر الدعوة وعَرضِ تعاليم الإسلام على كل ذى عقل، وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره فى العالم كله، وكان أول ذلك التغيير الجذرى هو: أَنْ فَتَحَ الله على المسلمين مكةَ التى كانت من قَبلُ قلعة الشرك وحصن المشركين، وكان ذلك الفتح العظيم فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

والسبب المباشر لذاك الفتح؛ يتضح فيما أخرجه البيهقي بسندٍ صحيح إلى ابن إسحاق قال: حَدَّثَنا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ جَمِيعًا، قَالَا: كَانَ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ: أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاثَبُوا خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةَ أَوِ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَهْدِهِ لَيْلًا بِمَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ «الْوَتِيرُ»(١٦٨) قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، فَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ لِلضِّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ

دلائل النبوة ٤/ ٤٠٢، ٤٠٣.

(١٦٨) (الوتير) في كلام العرب: الورد الأبيض، ويطلق على ماء لخزاعة.

سَالِمٍ رَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.. يُخْبِرُهُ الخَبَرَ.. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ» فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عَنَانَةٌ(١٦٩) فِي السَّمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ» وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِالجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ... وَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ العَقْدَ وَيَزِيدُ فِي المُدَّةِ»... ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ! مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الفِرَاشِ؟ أَوْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي (شَيْءٌ) أو (شَرٌّ)، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ، فلم يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ عُمَرُ: أَأَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ لَكُمْ إِلَّا الذَّرَّ –صِغار النمل– لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَمَسُّ القَوْمِ بِي رَحِمًا، وَأَقْرَبُهُمْ مِنِّي قَرَابَةً، وَقَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أَرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! وَاللهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ... الخبر بطوله(١٧٠).

وهكذا أنجز الله للمسلمين ما وعدهم ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨﴾ وفتح لهم: ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ [الفتح].

---

(١٦٩) جمعها: عنان، وهو السحاب.

(١٧٠) دلائل النبوة للبيهقي٥/٥:٨،وسيرة ابن هشام٢/٣٨٩:٣٩٧، وعيون الأثر٦/٥١٤بسند حسن فيه ابن إسحاق.

وَافتُتِحَتْ مَكَّةُ شَهْرَ رَمَضَان ۞۞ وَهُوَ الذِي فِيهِ نُزُولُ القُرآن
وَقَد أَمَدَّتْ بَكْرَ بِالسِّلَاحِ ۞۞ وَبِالرِّجَالِ سَادَةُ البِطَاحِ
فَبَيَّتُوا خُزَاعَةَ وَقَتَلُوا ۞۞ مِنْهُم رِجَالاً بِالوَتِيرِ نَزَلُوا
وَجَاءَ وَفْدٌ فِيهِمُ المِقْدَامُ ۞۞ عَمرُو بنُ سَالِمٍ وَمَا اسْتَسَامُوا
حَتَّى أَتَى بِقِصَّةِ الخِيَانَهْ ۞۞ وَطَلَبَ النَّجْدَةَ وَالإِعَانَهْ
يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ۞۞ حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوعِدَا ۞۞ وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤَكَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا ۞۞ وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدًا
وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا أَبِي الزَّهْرَاءِ ۞۞ بِالدَّمعِ وَاستَعَدَّ لِلأَعدَاءِ
وَأَدْرَكَتْ مَكَّةُ مَا فِي الأَمْرِ ۞۞ فَأَرْسَلَتْ بِالعَبْقَرِي صَخْرِ
يُؤَكِّدُ العَهْدَ وَعِنْدَ رَمْلَه ۞۞ كَانَ نُزُولُه وَحَطَّ رَحْلَه
وَلَمْ يَجِد فِي طَيْبَةَ مَا يَهْوَى ۞۞ فَعَادَ رَاجِعًا بِغَيرِ جَدْوَى
وَقِيلَ مَن كَانَ يُعِزُّ دِينَهْ ۞۞ فَلْيَشْهَدِ الصِّيَامَ بِالمَدِينَهْ
وَاتَّخَذَ النَّبِيُّ أُهْبَةَ السَّفَرْ ۞۞ وَلَمْ يُبَيِّنْ لِلجَمَاهِيرِ الخَبَرْ
وَحَاطِبٌ مِنْ عُظَمَاءِ الصَّحْبِ ۞۞ قَدْ كَادَ يُفْشِي سِرَّ هَذا الحَرْبِ
وَأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى ۞۞ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى(١٧١)

---

(١٧١) المجرور بحرف إلى: محذوف للعِلْم به، وهو (أهل مكة)، وقد ذكر السهيلى أن الْكِتَاب كان فيه: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَه» الروض الأنف ٨٦/٧، وحاطب بن أبي بلتعة صحابى شهد بدراً والحديبية، قال لرسول الله ﷺ: لا تعجل علي يا رسول الله، والله ما خنت الله ورسوله أبداً؛ ولكنه ما من أحد من أصحابك إلا وله في مكة من يحفظ أهله وماله بها، وليس لي أحد: فأردت أن أتخذ عندهم يداً يحفظ بها أهلي ومالي، وأنا أعلم أن ذلك لا يغني عنهم من شيء، فصدَّقه رسول الله

وَسَارَ فِي جَيْشٍ مِنَ الأَمْجَادِ ❁❁ وَمِنْ حُمَاةِ الحَضَرِ وَالبَوَادِي
فَمِنْ غِفَارِيٍّ وَمِن مُزَيْنَهْ ❁❁ وَالأَسْلَمِيينَ وَمِنْ جُهَيْنَه
عَشْرَةُ آلافٍ وَكُلُّ وَاحِد ❁❁ فِي عَزْمِ جُنْدِيٍّ وَرَاءَ القَائِد
مُسْتَخْلِفًا وَرَاءَهُ الضَّرِيرَا ❁❁ صَيَّرَهُ مِن بَعْدِهِ أَمِيرَا

غَزْوَةُ تَبُوك والكِتَابُ الثَّانِى إِلَى هِرَقل

فلما أَمَّنَ النبى ﷺ المدينة المنورة عاصمة الدولة المسلمة من الجنوب بفتح مكة والطائف فى العام الثامن الهجرى؛ استقبل ﷺ فى العام التاسع وفود القبائل المسلمة من كافة أقطار الجزيرة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، ثم أراد ﷺ أن يُؤَمِّن الدولة المسلمة من جهة الرومان فى الشمال؛ لأنهم أهل كتاب فالخطر من جهتهم أعظم، واختلاطهم بالعرب أكثر.. فاعتزم ﷺ أن يرسى العلائق بينه وبينهم على دعائم مكينة؛ حتى يكون الدعاة إلى دين الله أحرارًا فى عرضهم دين الله على الناس: إن راقهم قبلوه ودخلوا فيه؛ وإن ساءهم تركوه وانصرفوا عنه، أمَّا أن يحاربوا الدعاة ويصدوا الناس عن سبيل الله: فهذا يرفضه الإسلام ويقاومه بالقوة.

أشارت سورة التوبة إلى غزوة حنين فى ثلاث آيات من ٢٥: ٢٧، ثم فصَّلتْ أحوال الناس فى غزوة تبوك ضمن آيات كثيرة فى السورة نفسِها، بدأً من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى فى

ﷺ، وقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق الذي خان الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عمر إنه من أهل بدر، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونزل في ذلك الآيتين الأولين من سورة الممتحنة.

السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

فاستحثَّ الناسَ رسولُ الله ﷺ إلى غزو الروم فى تبوك، على أطراف الشام مع جزيرة العرب بجيشٍ سُمِّى جيش العسرة، وكان ذلك فى شهر رجب من العام التاسع للهجرة.

وكان من عادته ﷺ في الحرب أنه لا يريد غزوة إلا ورى غيرها(١٧٢)، لكنه ﷺ أعلم أصحابه بالجهة التي يقصدها وذلك لبعد الشقة وعظم المشقة، حيث كان ذلك فى فصل الصيف سنة٦٣٠م؛ عند اشتداد الحر وطيب الظلال وجنى الثمار فى المدينة، أما فى الصحراء فإنها على العكس من ذلك؟، حيث يكابد الناس فيها شدة القيظ والقحط، قال عمر بن الخطاب: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ؛ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَنْحَرُ بَعِيرَهُ: فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ ﷺ يَدَيهُ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ فَأَظْلَمَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَازَتِ الْعَسْكَرَ(١٧٣).

---

(١٧٢) أي إذا أراد السفر إلي جهة سأل عن مكان بجهة أخرى، فيظن الناس أن تجهزه للسفر يريد به ما سأل عنه، أما أن يصرح بجهة معينة ويريد غيرها فلا، وذلك مشروع في الحرب ليتحقق الهدف ويتم النصر بأقل خسائر، وفي صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب إذا أراد غزوة ورى بغيرها ٦/١١٢ ،١١٣، من حديث طويل لكعب بن مالك رضي الله عنه وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عز وجل عليهم – قال «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلا وَرَّى بِغَيْرِهَا».

(١٧٣) إسناده حسن، وصححه ابن خزيمة، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، قال الهيثمى: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات. مجمع الزوائد ٦/١٩٤، ١٩٥، وينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٤/١٦.

ثم إن الصدام مع الروم ليس قتالاً لقبيلة محدودة العَدَدِ والعُدَدِ؛ بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على عدة قارات من العالم، وتملك موارد كثيرة من الأموال، وتقهر شعوبًا عديدة تحتل بلادها وتستنزف مواردها... فليتحامل المسلمون على أنفسهم، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض عليهم من تضحيات فى سبيل إعلام الناس بهذا الدين(١٧٤).

لقد كانت هذه الغزوة درسًا عمليًا للمسلمين في نشر دين الله في العالمين لأنه ينبغي مقاتلة من يصد عن سبيل الله أو يحول دون تبليغ دينه للمكلفين ويبدو أن الرومان قد أحسوا بخطر المواجهة فلم يخرج منهم أحد إلى تبوك(١٧٥)، فلم يلق النبي ﷺ، ولا أصحابه بها كيدًا ولا حربًا، فلم يخرج أحد من الرومان، وصالح النبى ﷺ نصارى العرب الضاربين فى هذه الأرجاء؛ لأنهم أيقنوا أن اعتمادهم على سادتهم الأقدمين لا فائدة منه، فدخل فى عهده ﷺ أصحاب أيلة وتيماء ودومة الجندل وغيرهم، وكانت الرسالة الثانية التى بعث بها رسول الله ﷺ وهو في تبوك إلى هرقل تأكيدًا لنشره ﷺ دين الله في العالمين.

أخرج الإمام أحمد(١٧٦) بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد قال: لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ(١٧٧) رَسُولَ

---

(١٧٤) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤: ٥٠، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٤٧: ٤٥٤.

(١٧٥) موضع شمال المملكة العربية السعودية بالقرب من حدود مصر والأردن، وكانت هذه الغزوة في رجب سنة ٩ هجرية، ورجع منها رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة نفسها. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٨/١/٢: ١٢١، الأطلس العربي ص ٣٥.

(١٧٦) المسند ٤٤١/٣، ٤٤٢ ح١٥٦٥٥، وفى ٧٤/٤، ٧٥ ح١٦٦٩٤ من رواية: عبدالله ابن الإمام أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ حَوْثَرَةُ بْنُ أَشْرَسَ، إِمْلَاءً عَلَيَّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ.. بمعناه مختصرًا، ومسند أبى يعلى ح١٥٩٧ بالإسناد نفسه... بمعناه مطولاً، وقال الهيثمي: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك. مجمع الزوائد ٢٣٤/٨: ٢٣٦. وفات الهيثمى نسبته إلى الإمام أحمد، وهو الموضع الذى هنا، وضعف إسناده بعضهم، لأن فيه: سعيد بن أبى راشد لم يوثقه سوى ابن حبان؛ لكنه

هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمْصَ – وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا – فَقُلْتُ: أَلا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبُوكَ، فَبَعَثَ دِحْيَةَ (١٧٨) الْكَلْبِيَّ إِلَى هِرَقْلَ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا قِسِّيسِي وَبَطَارِقَتَهَا ثُمَّ أَغْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَابًا فَقَالَ: قَدْ نَزَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَيْثُ رَأَيْتُمْ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَدْعُونِي إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ: يَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ، أَوْ عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا – وَالأَرْضُ أَرْضُنَا – أَوْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ الْحَرْبَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ فِيمَا تَقْرَءُونَ مِنَ الْكُتُبِ: لَيَأْخُذَنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ، فَهَلُمَّ نَتَّبِعْهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ نُعْطِيهِ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا، فَنَخَرُوا نَخْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا: تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَدَعَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ نَكُونَ عَبِيدًا لأَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنَ الْحِجَازِ، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ أَفْسَدُوا عَلَيْهِ الرُّومَ رَفَّأَهُمْ (١٧٩) وَلَمْ يَكَدْ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لَكُمْ لأَعْلَمَ صَلابَتَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، ثُمَّ دَعَا رَجُلاً مِنْ عَرَبِ تُجِيبَ (١٨٠) كَانَ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: ادْعُ لِي رَجُلاً حَافِظًا لِلْحَدِيثِ عَرَبِيَّ اللِّسَانِ، أَبْعَثْهُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِجَوَابِ كِتَابِهِ، فَجَاءَ بِي، فَدَفَعَ

تابعى لم يجرحه أحد قبل ابن حبان ولا بعده، وما اعترض على توثيق ابن حبان له أحد من الأئمة، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به، وعزاه إلى الإمام أحمد. البداية والنهاية ٥/ ١٥، ١٦.

(١٧٧) نسبة إلي تنوخ، ومعناها الإقامة، وأصلها: عدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا علي التناصر فأقاموا هناك فسموا تنوخا. اللباب ١/ ٢٢٥.

(١٧٨) بمهملتين الأولي مكسورة وقد تفتح، والثانية ساكنة بعدها مثناة تحتانية، ابن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي مشهور أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان جبريل ينزل علي صورته، لأنه كان حسن الصورة، حتى كان يضرب به المثل في ذلك، وهو الذي حمل الرسالة الأولى من رسول الله ﷺ إلى هرقل في أول سنة ٧ أو آخر سنة ٦ من الهجرة. الإصابة ٣/ ١٩٢،١٩١.

(١٧٩) أي سكَّنهم وهدَّأهم وأبدى لهم موافقته مداراة وتوددًا. لسان العرب ٣/ ١٦٨٥، ١٦٨٦.

(١٨٠) بضم المثناة الفوقانية بعدها جيم فمثناة تحتانية فموحدة: إحدى قبائل العرب. اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٠٧.

إِلَيَّ هِرَقْلُ كِتَابًا فَقَالَ: اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَمَا ضَيَّعْتَ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلاثَ خِصَالٍ، انْظُرْ: هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، وَانْظُرْ: إِذَا قَرَأَ كِتَابِي، فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ، وَانْظُرْ فِي ظَهْرِهِ، هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيبُكَ؟ فَانْطَلَقْتُ بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ مُحْتَبِيًا(١٨١) عَلَى الْمَاءِ فَقُلْتُ: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ؟ قِيلَ هَا هُوَ ذَا، فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي، فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ»؟ فَقُلْتُ: أَنَا أَحَدُ تَنُوخَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ فِي الإِسْلامِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ»؟ قُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ، لا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]، يَا أَخَا تَنُوخَ، إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْرَى فَمَزَّقَهُ، وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزِّقٌ مُلْكَهُ، وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا، وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ وَمُخْرِقٌ مُلْكَهُ(١٨٢) وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْسًا مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ﴾ قُلْتُ: هَذِهِ إِحْدَى الثَّلاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي، وَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي، ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلاً عَنْ يَسَارِهِ، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمْ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ؟ قَالُوا: مُعَاوِيَةُ، فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ»؟ قَالَ: فَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهُ فِي جِلْدِ سَيْفِي، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي، قَالَ: «إِنَّ لَكَ

---

(١٨١) أي جالسًا ضامًا رجليه إلى بطنه بيديه. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(١٨٢) هذا مَلِك آخر وَلِيَ الحبشة، وكان نصرانيًا بعد وفاة النجاشي الذي كان قبله، لأن النجاشي الذي أسلم قديمًا وهاجر إليه المسلمون توفي في رجب سنة تسع من الهجرة، وقيل: توفي قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي ﷺ وأصحابُه صلاة الجنازة وهم بالمدينة، ومعني خرق: قطَّع وشقَّ ومزَّق، والله أعلم. ينظر: الإصابة ١/ ١٧٧، فتح الباري ٣/ ١١٦: ١١٨، ١٨٨، النهاية ٢/ ٢٦.

حَقًّا وَإِنَّكَ رَسُولٌ، فَلَوْ وُجِدَتْ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ جَوَّزْنَاكَ بِهَا، إِنَّا سُفْرٌ مُرْمِلُونَ»(١٨٣).

قَالَ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ، قَالَ: أَنَا أُجَوِّزُهُ، فَفَتَحَ رَحْلَهُ، فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ(١٨٤)، فَوَضَعَهَا فِي حَجْرِي، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ؟ قِيلَ لِي: عُثْمَانُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ يُنْزِلُ هَذَا الرَّجُلَ» فَقَالَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَقَامَ الأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ» فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِمًا فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَلَّ حَبْوَتَهُ(١٨٥) عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ: هَاهُنَا امْضِ(١٨٦) لِمَا أُمِرْتَ لَهُ، فَجُلْتُ فِي ظَهْرِهِ، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ(١٨٧) الْكَتِفِ مِثْلِ الْحَجْمَةِ(١٨٨) الضَّخْمَةِ.

وهذه معجزة ظاهرة وآية بينة، وعلامة من علامات النبوة الواضحة، حيث كان التنوخي قد شغل بالجائزة وكرم الضيافة عن الأمر الثالث الذي كان هرقل قد كلفه به، فنبهه إليه رسول الله ﷺ، ومع هذا فلم يؤمن التنوخي إلا بعد وفاة النبي ﷺ بزمن طويل، ومن ثم لم يذكره أحد فى الصحابة، واتفقوا على أنه تابعي، لكن حديثه متصل لقبولهم رواية المسلم البالغ لما تحمله قبلهما في حال الكفر والصِّبَى(١٨٩)، والله أعلم.

ونلحظ كيف تغير أسلوب الرسالة الثانية من رسول الله ﷺ إلى هرقل، إذ في الرسالة الأولى كان يعرض عليه الإسلام ويدعوه إلى الدخول فيه، أما في هذه الرسالة فقد تجهز إليه

---

(١٨٣) أي: إنا مسافرون قد نفد زادنا أو كاد ينفد. القاموس ٢/ ٥٠، ٣/ ٣٩٨.

(١٨٤) يعني ثوبًا مصبوغًا بنبات طيب الرائحة كالزعفران وغيره. ينظر: القاموس ٢/ ٧٣.

(١٨٥) أي: ثوبه الذى يلبسه. النهاية ١/ ٣٣٥.

(١٨٦) أي: دقِّق النظر لترى ما جئت من أجله (خاتم النبوة). لسان العرب ص ٤٢٣٥، ٤٢٣٦.

(١٨٧) أي: ثنايا الجِلْد وتكسره بسبب عَظْم الكَتف. ينظر: مقاييس اللغة ٤/ ٤٢٧.

(١٨٨) الحَجْمُ من الشيء: ملمسه الناتئ تحت يدك. القاموس المحيط ١/ ١٠٩١.

(١٨٩) ينظر: تدريب الراوي ١/ ٢٠٧، و٢/ ٤، تعجيل المنفعة ص ٥٣٥.

رسول الله ﷺ قاصدًا إليه في بلده وبعث له بالرسالة من مكان قريب يرغبه في الإسلام ويخيره بين إحدى ثلاث: إما أن يقبل الإسلام ويدخل فيه، أو يؤدي الجزية، أو يبرز إليه في مكان الحرب حتى يحكم الله بينهما وتكون كلمته هي العليا.

حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع

ثم حج رسول الله ﷺ بالناس فى العام العاشر من الهجرة: حجة الوداع في أكثر من مائة وثلاثين ألف مسلم، بعد أن كانوا في صلح الحديبية خمس عشرة مائة على أكثر تقدير، وكانوا في فتح مكة نحو عشرة آلاف، وهكذا انتشر الإسلام واتسعت أرضه ودخل الناس في دين الله أفواجًا، قال أبو زرعة الرازى: قُبِضَ رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن رآه وسمع منه... كلٌّ رآه وسمع منه بعرفة(١٩٠).

وخاطب الله عز وجل ذلك الجمع المحتشد في حجة الوداع ممتنًا على الأمة ونبيها ﷺ بتمام النعمة وإكمال الدين، وانحصار رقعة الكفر وكبت أهله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

إن هذا التوجيه من الله تعالى للأُمَّةِ المسلمة في ذاك الوقت ليس قاصرًا عليهم بل هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان ومكان...

فالمؤمنون حقًا هم الذين يرتضون ما رضيه الله لهم من هذا الدين، بمعناه الكامل الشامل، الذين يتخذون هذا الدين كله منهاجًا للحياة، حتى إن أشد الناس عداءً لهذه الأمة ليحسدونها

---

(١٩٠) مقدمة ابن الصلاح ص٢٩٨، وتدريب الراوى ٢/ ٢٢٠.

على ما آتاها الله من فضله، وحباها بنعمه وكرمه، ففي أمهات كتب السنة الأصيلة ومصادرها الوثيقة بأسانيد صحيحة، عن طارق بن شهاب قال: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ(٣٦٤): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ(١٩١).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾: يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم، ويؤكد هذا: الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(١٩٢) يعني أن الشيطان رضي بذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ معناه: لا تخافوا منهم في مخالفتكم لأهل الشرك، واخشوني أنصركم عليهم

---

(٣٦٤) اللفظ للإمام أحمد في المسند ٢٨/١.

(١٩١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة: البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه ١٠٥/١، وفي كتاب المغازي/ باب حجة الوداع ١٠٨/٨، وفي كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٦٨/٨، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٤٥/١٣، ومسلم في صحيحه: كتاب التفسير ٢٣١٢/٤، والترمذي في جامعه: كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٥٠/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في المجتبى من سننه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ١١٣/٨، ١١٤، وكان ذلك اليوم بالتقويم الشمسى هو الموافق ٥/٣/٦٣٢م، وراجع ما سبق فى هذا الجزءتحت عنوان «التَّأْرِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ».

(١٩٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٢١٦٦/٤، والترمذي في جامعه: البر والصلة/ ما جاء في التباغض ٣٣٠/٤، وأحمد في مسنده ٣١٣/٣، ٣٥٤، والتحريش: هو إغراء بعضهم على بعضهم الآخر بإثارة التباغض والفتن والشحناء... ونحو ذلك مما يُوغر الصدور.

وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... فلما أكمل الدين لهم تمت بذلك النعمة عليهم، فارضَوْا لأنفسكم الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وأكمله لهم، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا(١٩٣).

وهكذا ابتدأ الإسلام في غار حراء بمكة برسول الله ﷺ منفردًا وهو شاخص ببصره إلى السماء، وجبريل يقول له أنت رسول الله وأنا جبريل، وها هو ذا يكمل بجوار غار حراء عند الصخرات من جبل عرفة، وحول رسول الله ﷺ مائة وثلاثون ألفًا من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة(١٩٤) يقتدون بالنبي ﷺ ويشاهدونه ويسمعون منه ويتلقون عنه، فتمت النعمة، وعظمت المنة، وكانت حجة البلاغ والوداع، وتم بناء صرح الإسلام الشامخ برسالة خاتم النبيين كما قال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»(١٩٥).

---

(١٩٣) تفسير الطبري: ٥١٦/٩: ٥١٨، وتفسير ابن كثير ٢٢/٣، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

(١٩٤) ينظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ١٩٨/٣، ١٩٩.

(١٩٥) صحيح مسلم : كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٧٩٠/٤، ١٧٩١، عن أبي هريرة واللفظ له،

إعداده ﷺ خلفاءه لتحمل الأمانة

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه يثبت قدمه على الخطوة التالية ويمكن لها ولو لم يخطوها، فلما أحس ﷺ بدنو أجله وانتهاء عمره ليلحق بالرفيق الأعلى أراد أن يؤصل في نفوس أصحابه الوسيلة التي بها ينشرون دين الله في الأرض، وهي: الجهاد في سبيل الله عز وجل، لأن هذه الفريضة ذروة سنام الإسلام وبها يعبد الله وحده لا شريك له، مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشر، وحفظ الأنفس والأموال، ورعاية الحق، وصيانة العدل، وتعميم الخير ونشر الفضيلة، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ١٦٨فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

فأمر ﷺ بإنفاذ الجيش إلى بلاد الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة؛ ولمَّا يبلغ عمره عشرين سنة، وتحت لوائه كبار الصحابة وفضلاؤهم رضي الله عنهم أجمعين.

ففى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر من العام الحادى عشر الهجرى: أمر رسول الله ﷺ بغزو الروم، وحثهم على الإسراع فى السير؛ حتى لا يسبقَهم الخبرُ إلى عدوهم، ووجههم إلى أُبنَى(١٩٦) من أرض فلسطين بين الرملة وعسقلان، وبالقطع لا بد أن يمر الجيش بمؤتة التى استشهد بها الأمراء الثلاثة.

وكذا نحوه عن جابر وأبي سعيد، وينظر مسند أحمد ٩/٣.

(١٩٦) (أُبْنَى): بضم الهمزة والقصر، وهى الآن تنطق بالياء (يُبنَى): اسم موضع من فلسطين بين عسقلان والرملة شمال غزة. ينظر: معجم البلدان ٧٩/١.

ولا بد هنا من إزالة اللبس حول كلمة وردت في حديث متفق عليه دفاعًا عن أصحاب رسول الله ﷺ:

قال البخارى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ -يعنى: ابن سلام-، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ الأَحْوَلِ، سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: يَوْمُ الخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الحَصَى، قُلْتُ يَا ابنَ عَبَّاسٍ: مَا يَوْمُ الخَمِيسِ؟ قَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا» فَتَنَازَعُوا، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: مَا لَهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ؟ فَقَالَ: «ذَرُونِي، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فَأَمَرَهُمْ بِثَلاَثٍ، قَالَ: «أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَأَجِيزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ» وَالثَّالِثَةُ إِمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا، وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيتُهَا، قَالَ سُفْيَانُ: هَذَا مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ.

وأخرجه مسلم عن سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَقُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَمْرٍو النَّاقِدِ، وَاللَّفْظُ لِسَعِيدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ.. به نَحْوَ حديث البخارى، وله متابعات كثيرة، وطريق ثانية عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى الصحيحين وغيرهما أيضًا، ولرواياته ألفاظ متقاربة يأتى ذكر بعضها(١٩٧)، وفى الرواية الأولى عند الإمام أحمد نقل عن شيخه سفيان بن تفسيره لكلمة «أَهَجَرَ؟» بقوله: يعنى هَذِيَ.

---

(١٩٧) صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب كتابة العلم ٢٠٨/١، وكتاب الجهاد/ باب جوائز الوفد، وهل يشفع إلى أهل الذمة؟ ومعاملتهم ١٧٠/٦، وكتاب الجزية والموادعة - واللفظ له-/ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ٢٧٠/٦، ٢٧١، وكتاب المغازى/ باب مرض النبى ﷺ ووفاته ١٣٢/٨ وكتاب المرضى/ باب قول المريض قوموا عنى ١٢٦/١٠، وكتاب الاعتصام/ باب كراهية الاختلاف ٣٣٦/١٣، وصحيح مسلم كتاب الوصية/ باب ترك الوصية لمن ليس له شىء يوصى فيه ٨٩/١١: ٩٥، ومسند الإمام أحمد ٢٢٢/١، ٢٩٣، ٣٢٤، ٣٣٦، ٣٥٥، وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت أرقام ١٩٣٥، ٢٦٧٦، ٢٩٩٢، ٣١١١، ٣٣٣٦، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب العلم/ باب كتابة العلم ٤٣٣/٣، ٤٣٤، ح٥٨٥٢، ٥٨٥٤، وكتاب الطب/ باب قول المريض: قوموا عنى ٣٦٠/٤ ح٧٥١٦.

ومن ثَمَّ: أطال العلماء وأفاضُوا، وأجادوا الكلام فى بيانهم المراد من هذه الكلمة، ومن هؤلاء: الخطابى، والبيهقى، والقاضى عياض، وابن الأثير، والنووى، والقرطبى، وغيرهم، وكلامهم مبسوط فى شروح الحديث، وسأَنتخب منه هنا ما يفى بالغرض ويحقق البيان، ثم أُعقب بما يفتح الله به علىّ، فأقولُ مستعينًا بالله تعالى:

اختلفت الروايات فى ضبط كلمة «أَهَجَرَ» وأحسن ما قيل فى ضبطها ما ذكره القرطبى، ولخصه الحافظ ابن حجر بقوله: وحاصله أن قوله: «أَهَجَرَ» الراجح فيها: إثبات همزة الاستفهام وبفتحات على أنها فعل ماضٍ.

قال: ولبعضهم: «أهُجْرًا» بضم الهاء وسكون الجيم والتنوين على أنه مفعول لفعل مضمر، أى: أقال هُجْرًا، والهُجْرُ بالضم ثم السكون: الهذيان، والمراد به هنا: ما يقع من كلام المريض الذى لا ينتظم، ولا يعتد به لعدم فائدته.

وأما وقوع ذلك من النبى ﷺ فمستحيل: لأنه معصوم فى صحته ومرضه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم]، ولقوله ﷺ: «إِنِّي لَا أَقُولُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا إِلَّا حَقًّا»(١٩٨).

فإذا عُرف ذلك؛ فإن قول من قاله يتجه إلى أنه قاله منكِرًا على مَن توقَفَ فى امتثال أمره ﷺ، فلم يُحضِر الكتف والدواة، فكأنه قال: كيف تتوقف فى أمره؟ أتظن أنه كغيره يقول

(١٩٨) حديث صحيح، قال النبى ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص حين نهته قريش عن كتابة كل شىء عن رسول الله ﷺ: لأنه بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فقال ﷺ: «اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا الحق» وأشار بيده إلى فِيه، أخرجه أبو داود فى سننه كتاب العلم/ باب فى كتابة العلم ٤/٦٠، ٦١، والإمام أحمد فى مسنده ٢/١٦٢، ١٩٢، والدارمى فى سننه: المقدمة/ باب من رخص فى كتابة العلم ١/١٣٦، والحاكم فى المستدرك – واللفظ له –/ باب كتابة العلم ١/١٠٥،١٠٦.

الهذيان فى مرضه؟!! امتَثِلْ أَمْرَهُ، وأَحْضِرْ ما طلبَهُ، فإنه؛ لا يقول إلا الحق، قال: يعنى القرطبى: هذا أحسن الأجوبة.

ويحتمل: أن يكون ذلك القول صدر من قائله عن دهشةٍ وحيرة، كما أصاب كثيرًا منهم عند موته ﷺ.

وقيل: قال ذلك من قال، لإرادة سكوت الذين لغطوا ورفعوا أصواتهم عنده، فكأنه قال: إن ذلك يؤذيه ويفضى فى العادة إلى ما ذكر.

ويحتمل أن يكون قوله «أَهَجَرَ» فعلاً ماضيًا -بفتح الهاء والجيم- من الهَجْر -بسكون الجيم- والمفعول محذوف تقديره: الحياةَ، بمعنى أنه ﷺ يقول ذلك لأنه مفارقهم فى الحياة وهاجرهم بسبب الموت، وذكره بلفظ الماضى مبالغة لما رأى من علامات الموت.

ثم ذكر الحافظ ابن حجر احتمالاً آخر، بالإضافة إلى ما ذكره القرطبى، فقال: ويحتمل أن يكون قائل ذلك أحد الذين دخلوا فى الإسلام قريبًا وكانوا يعتادون أن من اشتد عليه الوجع قد يشتغل به عن تحرير ما يريد أن يقوله لجواز وقوع ذلك، ولهذا وقع فى الرواية الثانية: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الوَجَعُ» وفى إحدى روايات مسلم: «فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر» ويؤيد ذلك أنهم قالوا: «استفهِمُوه» بصيغة الأمر على سبيل الاستفهام، أى اختبروا أمره، واستفهِمُوه عن هذا الذى طلبه: أهو على سبيل الاستحباب؟ أم على سبيل الوجوب؟ ولما وقع منهم التنازع والاختلاف: ارتفعت البركة، كما جرت العادة عند وقوع التخاصم والتشاجر.

قال المازرى: إنما جاز للصحابة الاختلاف فى هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ﷺ ظهرت منه قرينةٌ دلت على أن الأمر ليس على التحتم؛ بل على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لِمَا قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصدٍ جازم.

وقال ابن الجوزى: فى قوله ﷺ: «دعونى...» إلى آخره: يحتمل أن يكون المعنى دعونى فالذى أُعايِنُه من كرامة الله التى أعدها لى بعد فراق الدنيا: خيرٌ مما أنا فيه فى هذه الحياة، أو أن الذى أنا فيه من المراقبة والتأهب للقاء الله والتفكر فى ذلك ونحوه: أفضل من الذى تسألوننى فيه من المباحثة عن المصلحة فى الكتابة أو عدمها.

قال الحافظ ابن حجر: فعلى هذا كان أمره ﷺ اختبارًا وامتحانًا، فهدى الله عمر لمراده وخَفِيَ ذلك على غيره.

وقول عمر بن الخطاب: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» لم يُرِدْ به الاكتفاء بالقرآن عن بيان السنة، وإنما قاله خشيةً مما يترتب على كتابة الكتاب من الطعن الذى يفتح الباب للمنافقين للنيل من هذا الدين.

قال الخطابى: لم يتوهم عمر الغلط فيما كان النبى ﷺ يريد كتابته؛ بل امتناعه محمول على أنه لما رأى ما هو فيه من الكرب وحضور الموت خشى أن يجد المنافقون سبيلاً إلى الطعن فيما يكتبه، وإلى حمله على تلك الحالة التى جرت العادة فيها بوقوع بعض ما يخالف الاتفاق، فكان ذلك سبب توقف عمر؛ لا أنه تعمد مخالفة قول النبى ﷺ، ولا جواز وقوع الغلط عليه! حَاشَ وكلَّا.

قال ابن حجر: فرأى عمر أن الاعتماد على القرآن لا يترتب عليه شىءٌ مما خشيه، وأما ابن عباس فلا يقال فى حقه: لم يكتف بالقرآن مع كونه حبرَ الأمة وأعلم الناس بتفسير القرآن وتأويله، ولكنه أسف على ما فاته من البيان بالتنصيص عليه لكونه أولى من الاستنباط، وَاللهُ أَعْلَمُ(١٩٩).

وقال النووى: اعلمْ أن النبى ﷺ معصوم من الكذب، ومن تغيير شىءٍ من الأحكام

(١٩٩) ملخصًا من فتح البارى ١٣٢/٨ : ١٣٥، وأصل كلام القرطبى فى ٢٠٨/١ ، ٢٠٩ من الفتح.

الشرعية فى حال صحته وحال مرضه، ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه؛ وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه، وليس معصومًا من الأمراض والأسقام العارضة للأجسام ونحوها مما لا نقص فيه لمنزلته، ولا فساد لما تمهد من شريعته، ولم يصدر منه ﷺ وهو فى هذه الحال: كلام فى الأحكام مخالف لما سبق من الأحكام التى قررها.

فإذا علمتَ ما ذكرناه فقد اختلف العلماء فى الكتاب الذى هَمَّ النبى ﷺ به، فقيل: أراد أن ينص على الخلافة فى إنسانٍ معين، لئلا يقع نزاع وفتنة، وقيل: أراد كتابًا يبين فيه: مهمات الأحكام ملخصة ليرتفع النزاع فيها، ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه، وكأن النبى ﷺ هَمَّ بالكتاب حين ظهر له أنه مصلحة، أو أوحى إليه بذلك، ثم ظهر أن المصلحة تركه، أو أوحى إليه بذلك ونسخ ذلك الأمر الأول.

وأما كلام عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد اتفق العلماء المتكلمون فى شرح الحديث: على أن من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره، لأنه خشى أن يكتب ﷺ أمورًا ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها، فقال عمر: حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، فعلم أن الله تعالى أكمل دينه، فأمن الضلال على الأمة، وأراد الترفيه على الرسول ﷺ.

قال القاضى عياض قوله: «أَهَجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» هكذا هو فى صحيح مسلم وغيره، أهجر على الاستفهام وهو أصح من رواية من روى هجر ويهجر، لأن هذا كله لايصح منه ﷺ لأن معنى هجر: هذى، وإنما جاء هذا من قائله استفهامًا للإنكار على من قال لا تكتبوا أى لا تتركوا أمر رسول الله ﷺ وتجعلوه كأمر من هجر فى كلامه، لأنه ﷺ لايهجر، وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأً من قائلها، قالها بغير تحقيق؛ بل لِمَا أصابه من الحيرة والدهشة

لعظيم ما شاهده من النبى ﷺ من هذه الحالة الدالة على وفاته، وعظيم المصاب به، وخوف الفتن والضلال بعده، وأجرى الهجر مجرى شدة الوجع، وقول عمر رضي الله عنه: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» رد على من نازعه لا على أمر النبى ﷺ، وَاللهُ أَعْلَمُ(٢٠٠).

وقال ابن الأثير: حديث مرض النبى ﷺ: «قالوا: ما شأنه؟ أهجر؟» أى اختلف كلامه بسبب المرض، على سبيل الاستفهام، أى هل تغير كلامه واختلط لأجل ما به من المرض؟ وهذا أحسن ما يقال فيه، ولا يُجعل إخبارًا، فيكون إما من الفحش أو الهذيان، والقائل كان عمر، ولا يُظَنُّ به ذلك(٢٠١).

وقال الإمام البيهقى: إنما قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما قال التخفيف على رسول الله ﷺ حين رآه قد غلب عليه الوجع، ولو كان ما يريد النبى ﷺ أن يكتب لهم شيئًا مفروضًا لا يستغنون عنه لم يتركهم لاختلافهم ولغطهم لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما لم يترك تبليغ غيره بمخالفة من خالفه، ومعاداة من عاداه، وفى ترك رسول الله ﷺ الإنكار عليه فيما قال دليل واضح على استصوابِهِ رأيَه، وبالله التوفيق(٢٠٢).

وبعد هذا الكلام النفيس من العلماء الكرام – رحمهم الله تعالى– أُنَبِّهُ القارئَ الكريم إلى أمر يتضح به ما يُتوهَمُ مِن لَبْسٍ فى كلام القاضى عياض، والعلامة ابن الأثير، فأقول:

إن القاضى رحمه الله لم يقصد توهين الرواية التى فيها: «هَجَرَ» بدون همزة الاستفهام، فإنها قد وردت فى كتاب الجهاد من صحيح البخارى، وكذلك الرواية التى فيها «يهجر» فإنها فى

---

(٢٠٠) ملخصًا من شرح النووى لصحيح مسلم ١١/ ٩٠: ٩٤، وبعض كلام الإمام النووى مقتبس من كلام البيهقى فى دلائل النبوة ٧/ ١٨٤، ١٨٥.

(٢٠١) النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة هجر.

(٢٠٢) دلائل النبوة ٧/ ١٨٤، ١٨٥.

صحيح مسلم.

وهمزة الاستفهام إذا كانت محذوفة فى الكتابة فإنها مقدرة فى المعنى، ولهذا قال عن الرواية الأولى: هى أصح، وأما قول القاضى عياض: «وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأً من قائلها...» فقد أضرب عنه القاضى بقوله: «بل لِمَا أصابه من الحيرة والدهشة لعظيم ما شاهده من النبى ﷺ...» إلى آخر ما ذكره من التأويل.

والأولى من التأويل والتضعيف أن يقال: القصة واحدة لم تتعدد، ومخرجها واحد، وهو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد حدَّث بها كلُّ واحدٍ من تلميذيه على حدة، أعنى: سعيد بن جبير الأسدى الكوفى، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلى أبا عبدالله المدنى، وكلاهما من الفقهاء الثقات الأثبات من الطبقة الوسطى من طبقات التابعين(٢٠٣)، وقد حدَّث بها كلُّ واحدٍ منهما تلامذتَه... وهكذا، فما المانع أن يكون ابن عباس حدث بالقصة مرة بألفاظها التى وقعت فيها، ومرة أخرى بمعناها، أو وقع ذلك من تلميذيه، أو من تلامذة كلِّ واحدٍ منهما، فمثلاً نجد فى رواية البخارى فى المغازى: «فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع...» وفى كتاب المرضَى بلفظ: «فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الوَجَعُ...» وهى هكذا فى الرواية الأخيرة من صحيح مسلم(٢٠٤).

فالذى قص اللفظ منسوبًا إلى قائله أولى من الذى رواه بمعناه غير منسوب كما سبق فى الروايات: «فقالوا: أَهَجَرَ؟» وغير ذلك، فينبغى رد الروايات المحتملة التأويل إلى الروايات الأخرى الواضحة الدلالة، وما دام الجمع بين الروايات ممكنًا فهو أولى من تخطئة بعضها.

---

(٢٠٣) تقريب التهذيب ص ٧٥، ٢٣٤، ٣٧٢.

(٢٠٤) أى أنها من المتفق عليه، ومن راجع ألفاظ الحديث فى مواطن تخريجه: وجد فروقًا كثيرة بين الألفاظ، وإن كان معناها واحد، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وبهذا أيضًا ينبَّه على كلام ابن الأثير حين نسب كلمة: «أَهَجَرَ» إلى عمر، وَاللّهُ أَعْلَمُ.

فلما كان يوم السبت بعد ابتداء مرض النبى ﷺ وقبل موته بيومين: دَعَا أُسَامَةَ فَقَالَ ﷺ: «سِرْ إِلَى مَوضِعِ مَقْتَلِ أَبِيكَ؛ فَأَوْطِئْهُمُ الخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الجَيْشَ، وَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أُبْنَى، وَحَرِّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعِ المَسِيرَ تَسْبِقِ الخَبَرَ، فَإِنْ ظَفَّرَكَ اللّهُ بهم، فَأَقِل اللَّبْث فِيهِمْ»(٢٠٥).

ونلحظ أنه ﷺ زادَه فى التكليف بتجاوز مؤتة التى استشهد بها أبوه متوغلاً فى أرض الروم حتى يصل إلى أُبنَى غرب بيت المقدس بفلسطين.

ثم عقد ﷺ اللواء لأسامةَ بيده، فأخذه أسامةُ فدفعه إلى بريدة بن الحُصيب، فعسكر بالجُرف، وقد انتُدِبَ كثير من المهاجرين الأولين والأنصار فى جيشه، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب (وكان من أكبرهم) ومَن قال: إن أبا بكر كان فيهم؛ فقد غلط، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيِّم بالجُرف، وقد أمَر النبى ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس: فكيف يكون فى الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين، ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة فى الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام(٢٠٦).

---

(٢٠٥) وفى سنن أبى داود بسند ضعيف أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «أَغِر علَى أُبنَى صَباحًا وَحَرِّق» كتاب الجهاد، باب فى الحرق فى بلاد العدو ٣/٨٨ ح٢٦١٦، وفيه: أن التحريق والتخريب فى بلاد العدو جائز لضرورة الحرب إن وقع تبعًا لها. نيل الأوطار ٧/٢٥١، وسبل السلام ٤/٥١، ٥٢.

(٢٠٦) ينظر: صحيح البخارى: كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ٢/١٦٤ ح٦٧٨، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ٢/٣١١: ٣١٦ ح٤١٨، ويراجع: هامش رقم ١٥٧.

وقال البخارى: بَعَثَ النبيُّ ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فى مرضه الذى توفى فيه، ثم أخرج من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله بعث بعثًا، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس فى إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»(٢٠٧).

ثم اشتد برسول الله ﷺ الوجع، فقال: «أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ» فَأَنْفَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الصديق بعد أن ولى الخلافة.

ثم لما توفى ﷺ استطلق الصديقُ عمرَ بن الخطاب من أسامةَ بن زيد واستأذنه فى الإقامة معه، وخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشيع أسامة، فركب من الجرف لهلال ربيع الآخر فى ثلاثة آلاف: وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى جَنْبِهِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك، إِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يُوصِيك، فَانْفُذْ لِأَمْرِ رسول الله ﷺ، فإني لَسْت آمُرُك وَلَا أَنْهَاك عَنْهُ، وَإِنَّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرٍ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فخرج أسامةُ بالجيش سريعًا، فسار الجيش عشرين ليلة إلى الجهة التى وُجِّه إليها، وقَدَّم أسامةُ عينًا إلى أُبنى، فعاد فأخبره أن الناس غافلون؛ ولا جموع لهم، فعبَّأ أصحابه وأغار عليهم قبل أن يجتمعوا فقتل وسبى وحَرَّق، وقَتَلَ أسامةُ قاتِلَ أبيه، ثم رحل مساءًا حتى قدم المدينة، وقد غاب خمسة وثلاثين يومًا، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لى، فسألته فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، وعاش أسامة إلى سنة أربع وخمسين، وقيل قبلها، وكانت وفاته بالمدينة أو بوادى القرى، رحمه الله ورضى عنه(٢٠٨).

---

(٢٠٧) صحيح البخارى ح٤٤٦٩، وأصله فى ح٣٧٣٠، وراجع شرح الحديث فى فتح البارى ٨/ ١٥٢.

(٢٠٨) يراجع فى ذلك: فتح البارى ٧/ ٨٧، ٨/ ١٥٢ ح٤٤٦٩، والإصابة١/ ٤٥ ترجمة أسامة، والسيرة النبوية لابن كثير٤/ ٤٤٠، ٤٤١، وإمتاع الأسماع ١/ ٥٣٥: ٥٤٠.

نعم: فارق رسول الله ﷺ الدنيا بعدما استقر الوحي في صدور الرجال، وبطون الكتب، وأصبح للإسلام فيها دولةٌ قائمة، ودعوة واضحة، وقوة مهيبة، وسلطان يعصم دماء المؤمنين وأموالهم، ويرد نزوات السفهاء عنهم، واتسعت الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم، حتى شملت الجزيرة كلها: من أطراف الشام إلى أقصى اليمن، ومن الخليج العربي إلى شواطئ البحر الأحمر، وأخذ أمر الإسلام يعلو، والرقعة التي يسودها تتسع، والأفواج التي تدخل فيه تزداد يومًا بعد يوم، نتيجة جهد دؤوب، وعطاء غير محدود طيلة ثلاث وعشرين سنة، من حياة رسول الله ﷺ هي مدة الوحي وزمن الرسالة، وقد استنار وجه رسول الله ﷺ حتى كأنه مُذْهَبَة، وذلك حين رمق المصلين في مسجده، وهم صفوف خلف أبي بكر يستمعون القرآن وينصتون له في خشوع ويقين، والدنيا في طول الجزيرة وعرضها تَدِين بهذا الكتاب، والأمة والدولة كلتاهما سند له وأشياع وحراس، كيف لا؟ وهو روحهم وحياتهم وعقيدتهم ومنهجهم ودستورهم وسر سعادتهم وسبب عزهم، والعناية بأمره لا تحتاج إلى تكلف أو مشقة.

قال الإمام ابن حزم: ثمَّ حَضرته ﷺ المَنِيَّةُ وأيقن بِالْمَوْتِ، وَله عَمٌّ أَخُو أَبِيه هُوَ أحبُّ النَّاس إِلَيْهِ، وَابْنُ عَمٍ هُوَ من أخصِّ النَّاس بِهِ، وَهُوَ أَيْضًا زوجُ ابْنَته الَّتِي لَا وَلَدَ لَهُ غَيرَهَا، وَله مِنْهَا ابنان ذَكَران، وكِلا الرَّجُلَيْن الْمَذْكُورين عَمِّه وَابْنِ عَمِّه: عِنْده من الْفضلِ وَالدّينِ والسياسةِ فِي الدُّنْيَا والبأس والحلم وخلال الْخَيْر.. مَا كَانَ كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقًا -جديرًا- بسياسةِ الْعَالمِ كُلِّه: فَلم يُحَابِهما، وهُما مِن أَشد النَّاسِ غِنَاءًا عَنهُ ومَحَبَّةً فِيهِ، وَهُوَ من أحبِّ النَّاسِ فيهمَا؛ إِذْ كَانَ غَيرُهمَا مُتَقَدما لَهما فِي الْفضل، وَإِن كان بعيدَ النّسَب مِنْهُ؛ بل فَوَّضَ الْأَمرَ إِلَيْهِ قَاصِدًا إِلَى مُرِّ الْحق وَاتِّبَاع مَا أَمَرَ بِهِ، وَلم يُورِّث وَرَثَته ابْنَته ونِسَاءَه وَعَمَّه فِلسًا فَمَا فَوْقَه، وهُم كلُّهم أحبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وأطوعُهُم لَهُ، وَهَذِه أُمُور لمن تأملها كَافِيَةٌ مغنيةٌ فِي أَنه إِنَّمَا تَصَرَّفَ بِأَمْر الله تَعَالَى لَا بسياسةٍ وَلَا

بهوى: فوضحَ بِمَا ذكرنَا، وَلله الحَمدُ كثيرًا أَن نبوة مُحَمَّدٍ ﷺ حقٌ، وَأَن شَرِيعَته الَّتِي أَتَى بهَا هِيَ الَّتِي وَضَحَت براهينُها واضطرت دَلائِلُها إِلَى تَصدِيقِها، وَالْقطع على أَنَّهَا الْحُقُّ الَّذِي لَا حَقَّ سِواهُ، وَأَنَّهَا دِينُ اللهِ تَعَالَى الَّذِي لَا دِينَ لَهُ فِي الْعَالِمِ غَيرُه، وَالْحَمْدُ للهِ ربِ الْعَالمينَ عَدَدَ خَلقِهِ ورِضَا نَفسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ(٢٠٩).

- وبعدَ أنْ لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى فى ضُحى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر من الهجرة النبوية الموافق ٦٣٢/٦/٧م: بايع الناسُ أبا بكر الصديق بالخلافة وقد لخص ذلك الشيخ محمد سالم البيحانى فقال:

أَحَـقُّ أَهْـلِ الأَرضِ بِـالخِـلَافَـةْ ❁❁ بَـعْـدَ الـنَّـبيّ ابنُ أَبِي قُحَـافَـةْ
سَـيّدُنَـا الـصِّـدّيـقُ عَـبـدُاللهِ ❁❁ خَـيْـرُإِمَـامٍ آمِـرٍوَنَـاهِي
وَخُطْبَـةُ الصِّدّيقُ كَانَت جَامِعَـه ❁❁ لأمْـرِهِـمْ وَكُلُّـهُـم قَدْ بَايَعَـهْ
إلاَّ الـقَـلِـيـلُ مِنْـهُـمُـولِـعُـذرِ ❁❁ وَأَنـتَ قَـدْ تَـدْرِي وَقَـدْ لا تَـدْرِي
وَأَوَّلُ الـمُـبَـايِـعِـيـن عُـمَـرُ ❁❁ ثُـمَّ أَبُـو عُبَـيـدَةَ الـمُـبَـشَّـرُ
وَجَـاءَ فِي خُـطـبَـةِ هَـذا الـوَالِي ❁❁ مَـا صَـدَّقَ الأَقـوَالَ بِالأَفعَـالِ
أَضعَفُكُم عِندِي القَوِيُّ الجَانِبُ ❁❁ مِن أَبْعَـدِ النَّـاسِ أَوِالأَقَـارِبِ
وَإِنَّ أَقْــوَى رَجُــلٍ عَـلَـيَّـا ❁❁ صَـاحِـبُ حَـقٍ يَبْـتَـغِي لَـدَيَّـا
حَتَّـى يُــؤَدِّي الـقَـوِيُّ الـحَـقَّـا ❁❁ وَيَـأخُـذَ الضَّـعِيفُ مَا استَحَقَّا
وَفِي عَـزِيـمَــةٍ وَفِي صَــرامَــهْ ❁❁ نَـفَــذَ جَـيـشًـا قَـادَهُ أُسَـامَهْ
فَـأَصبَـحَ الإِسْلامُ فِي الـجَـزِيـرَة ❁❁ يُضِيءُ مِثْلَ الشَّمسِ فِي الظَّهِيرَة
وَهَـبَّـتِ الأَسَـادُ مِـنْ عَـرِينِـهَـا ❁❁ لِـنَـشْـرِ عِـلـمِـهَـا وَنَـشْـرِ دِينِـهَـا
وَجَــاءَ فِي وَصِـيَّــةِ الـصِّـدّيـقِ ❁❁ مَـا يُـرشِـدُ الـنَّـاسَ إِلَى الطَّرِيقِ

---

(٢٠٩) الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٣٤١، ٣٤٣ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

فَـنَـمْ أَبَـا بَـكْـرٍ قَـرِيـرَ الـعَـيـنِ ۞۞ وَقُـمْ إِلَى الـمَـحْـشَـرِ ثَـانِيَ اثْـنَـيـنِ

وهكذا: حَمَلَ أصحابُ رسول الله ﷺ راية الإسلام ليؤدوا الأمانة ويواصلوا المهمة التي عهد بها إليهم نبيهم ﷺ، فأخذوا ينساحون في الأرض؛ لينشروا في العالمين ضياء الإسلام في دنيا الناس ويبددوا به الظلمات، ويزيلوا به الغشاوات، وصاروا كالغيث النافع في الأرض الطيبة: أحيا الله بهم البلاد وأسعد بهم العباد، فكانوا خير خلف لخير سلف.

وهكذا: أصبحت كلمة الإسلام بعد رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ تعني كل ما جاء به من عقائد وتشريعات وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق، وصارت -عند النطق بها أو سماعها- عَلَمًا على هذا الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لجميع المكلفين الذين بلغتهم دعوة الإسلام في أي زمان أو مكان، سواء في ذلك منهم: مَن قَبِلَه أو أَعرَضَ عنه، أو أذعن له أو ندَّ عنه، أو دَعَا إليه أو صَدَّ عنه، أو كان على ملةٍ صحيحة لم تبدل، أو على ملة حُرِّفت وبُدِّلت، أو لا ملة له ولا اعتقاد، أخرج مسلم وغيره(٢١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فمن سمع أو علم برسالة سيدنا محمد ﷺ وبمعجزاته، ثم أصر على كفره، ومات على ذلك فهو من المخلدين في النار، وذلك لأن رسالة نبينا محمد ﷺ نسخت جميع الملل قبلها، وأن شرعه ﷺ أبطل كل تشريع سابق عليه، وأما من لم تبلغه الدعوة فهو معذور لا عقاب عليه

---

(٢١٠) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلي جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٣٤/١، مسند أحمد ٣١٧/٢، ٣٥٠، وينظر شرح النووي صحيح مسلم ٣٦٩/١، وللحديث شاهد عن أبي موسى الأشعري أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٦٩/٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٢٦١/٨، ٢٦٢ والمراد (بالأمة فى الحديث): أُمَّةَ الدعوة، وليست أُمَّةَ الاجابة.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وكذا من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها، وتخصيص اليهودي والنصراني في الحديث للتنبيه على مَن سواهما، إذ اليهود والنصارى لهم كتاب، فغيرهم ممن لا كتاب لهم من باب أولى(٢١١).

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تصرح بعموم رسالته ﷺ للخلق عامة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي السنة المشرفة قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه(٢١٢): «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» وفيه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» وفي رواية لمسلم: «وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» وفي رواياته: «وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً».

وليس معنى أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة: أنه يأتي بدين غير الإسلام كاليهودية أو النصرانية مثلاً، بل معناه: أنه كان يبعث بالإسلام إلى قومه الذين أرسل إليهم، وكُلِّفَ بدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فكان هذا تخفيفًا على نبي ذاك الزمان ورفقًا به، ورحمة بأمته ورأفة بها، إذ كانت أحوالهم البيئية وظروفهم المعيشية تقتضي ملازمةَ كل رسول لقومه وكل نبي لأمته، وتَفَرُّغَ كلِّ واحدٍ منهم

---

(٢١١) ينظر فتح المنعم ٢/٢٥٢: ٢٥٤.

(٢١٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، قول النبي ﷺ «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» ١/٥٣٣، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١٣٧٠، وكذا عن أبي هريرة بلفظ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ... وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»، وأحمد ٣/٣٠٤.

لأتباعه، وتعهدَه بهم، ومعايشتَه لهم وقربَه منهم، وعدمَ الانشغالِ بسواهم، ليكون أبصرَ بدائهم، وأخبرَ بدوائهم، وأعلمَ بما ينفعُهم ويُفيدُهم، وذلك مثلُ كليم الله موسى وأخيه هارون مع بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف].

أما خاتم النبيين الذي كلفه ربه بتبليغ الرسالة للعالمين، فإن ذلك كان تشريفًا لقدره، ورفعة لذكره، وإكرامًا لأمته التي بلغت حدَّ النضجِ والكمال، فتحمَّلت أعباءَ الرسالة وأمانةَ هذا الدين وكانت بحقٍّ خيرَ أمة أُخرجت في العالمين.

وربما يفهم البعض من قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، أن لكل أمة من الأمم السابقة دينًا خاصًا بها أو اعتقادا تتميز به على غيرها.

والحق: أن الإسلام عالمي منذ نشأته تسميةً ومضمونا، وهو الذي بُعِثَ من أجله كلُّ نبي، وأُرسل به كل رسول، وأُنزل بيانًا له كلُّ كتاب.

وهكذا: لم يترك النبي ﷺ الدنيا، ولم يفارق هذه الحياة، وما لحق بالرفيق الأعلى... إلَّا بعد أن أدى رسالته وبلغها للناس على أكمل وجه وأتمه، وأبان لهم الحجة، وأوضح لهم المحجة، وتركهم على البيضاء ليلِها كنهارها لا يزيغ عنها إلَّا هالك.

وبهذا تنتهى هذه اللمحات السَّنِية من سيرة خير البرية ﷺ لكنها باقية فى قلب كل مسلم؛ ليسترشد بها فى سلوكه وأخلاقه وعباداته ومعاملاته، وينتفعَ بها على أحسن حال وأكملِه، ويهتدىَ بها إلى أقوم طريق وأعدلِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المُقَدِّمَة	٣ : ٨
الهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ والشَّرعِ وَمَسَالِكُ المُهَاجِرِينَ وَصِلَتُهُم بِكُلٍّ مِنهَا	٩ : ٢٣
الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ	٢٣ : ٣٢
طَلَائِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ	٣٢ ، ٣٣
مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهِجْرَةِ	٣٣ : ٤٠
بَيتُ أَبِى سَلَمَةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ	٣٤ : ٣٦
أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير	٣٦ ، ٣٧
تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ	٣٧ : ٤٠
هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ	٤٠ : ٦٣
يَوْمُ الْهِجْرَةِ	٤٢ : ٤٤
لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ	٤٥ : ٥٣
التأريخ من بدء الهجرة	٥٤ : ٥٧
اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ	٥٨ ، ٥٩
بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ	٥٩ : ٦٣
تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِى مَدِينَتِهِ	٦٣ : ٧٣
صُهَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ وقصةُ هِجْرَتِهِ	٦٤ : ٦٩
الْمُؤَاخَاةُ فِى عَهْدِ النُّبُوَّةِ	٦٩ : ٧٣
العِفَّةُ والإِيثَارُ بَينَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار	٧٣ : ٧٩

الـمــوضــوع	رقم الصفحة
الإِسلامُ وتَربِيَتُهُ لأمثَلِ مُجتَمَعٍ وإِقَامَتُهُ لأكمَلِ دَولَة فِى التعَامُلِ مَع الغَيرِ	٧٩ : ٨٥
خُلاصَةُ الهِجرَةِ النَّبويَّةِ	٨٦ : ٩١
لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزَوَاتِ	٩٢ : ١٢٧
تَمحِيصٌ للمُؤمنينَ فى بَدرٍ وأُحُد	٩٢ : ١٠١
خَطَرُ النِّفَاقِ وَاليهُودِ عَلَى الدَّولَةِ النَّاشِئَةِ	١٠٢ : ١٠٧
شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ	١٠٧ : ١١٩
فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ	١٠٨ : ١١١
عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهِم	١١٢ : ١١٩
غَزوَةُ الخَندَقُ وبِدايَةُ الاستِقرَارِ	١١٩ : ١٢٧
الدَّعوةُ العَمَليَّةُ وصُلْحُ الحُدَيبِيَةِ	١٢٨ : ١٣٢
هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم	١٣٢ : ١٣٩
غَزْوَةُ مُؤتَة	١٣٩ : ١٤٥
غزوةُ ذاتِ السَّلاسِلِ	١٤٥ ، ١٤٦
الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ	١٤٧ : ١٥٠
غَزوَةُ تَبُوك والكِتَابُ الثَّانِى إِلَى هِرَقل	١٥٠ : ١٥٦
حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع	١٥٦ : ١٥٨
إعدادُهُ ﷺ خُلفاءَهُ لِتَحمُّلِ الأمانَةِ	١٥٩ : ١٦٨
لُحُوقُه ﷺ بالرفيقِ الأعلى	١٦٩ : ١٧٣
فهرس الموضوعات	١٧٤ ، ١٧٥